محمد مصطفى عبد الرحمن
من علماء الأزهر الشريف

أدب العبودية

مكتبة القاهرة
لصاحبها: علي يوسف سليمان
شارع الصنادقية - بميدان الأزهر بمصر

مطبعة النجاح الجديدة
لصاحبها : محمد محمد عبد الرحمن السنوسى
٣٨ شارع الشيخ القويسنى بالظاهر ـ بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

(فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيّم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) الروم ٣٠ .

* * *

(فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب، وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا وإليه المصير) الشورى ١٥ .

* * *

(يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد . يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هى دار القرار) غافر ٣٨ ، ٣٩ .

القسم الأول

الإيمانُ ومطالبه

أرسل رب العالمين رسله إلى البشرية فى كل زمان ومكان بالإيمان ومطالبه قال تعالى :

(وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين . قولوا آمنا بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أُوتى موسى وعيسى وما أُوتى النبيون من ربهم لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) البقرة ١٣٥ ، ١٣٦ .

* * *

(لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) الأعراف ٥٩ .

* * *

(قل إنما أُمرت أن أعبد الله ولا أُشرك به ، إليه أدعو وإليه مآب) الرعد ٣٦

* * *

(ولقد بعثنا فى كل أُمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) النحل ٣٦

* * *

(قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) الكهف ١١٠

* * *

(فاعبد الله مخلصاً له الدين . ألا لله الدين الخالص) الزمر ٢ ، ٣

* * *

فالإسلام المبنى على حقائق التوحيد :

ارتضاه الله ديناً وأحبَّه لعباده ، وبه نادت جميع الأنبياء لتحرر العقول من سيطرة الأوهام والخرافات ، ولتخلّص الإنسانية من شوائب الشرك ومن جحود الوثنية ! .

فلا تمجّد إلا الواحد الأحد ، المتصفة ذاته العلية بصفات الكمال المطلق ، والمنزّهة عن كل نقْصٍ وعيْبٍ ، وشبيهٍ ومثيلٍ وندّ .

يقول قتادة رضى الله عنه : شهادة أن لا إله إلا الله ، والإقرار بما جاء به الرسول من عند الله ، هو دين الله شرعه بنفسه ، وبعث به رسله ، ودل عليه أولياءه ، ولا يقبل غيره .

فبأدب العبودية تأدب وقم بالمطالب ، ولا تتزود فى عبادتك إلا من بيان القرآن والسنة ، فليس بعد بيانهما من بيان .

ولا تقل عن الذات العلية المقدسة ما قالته طوائف الشرك ، ولا تنكر الصفات والأفعال والاستواء على العرش ورسالة الرسل ، كما أنكرت (الجهمية) .

ولا تقل إن العباد هم الخالقون لأفعالهم ومشيئتهم ، ولا تنكر مشيئة الله ولا الخلق ولا التقدير ، ولا تنكر حقائق الأسماء والصفات ، كما أنكرت (القدَرية)

ولا تقل بجبر العباد على الأفعال ، وأن لا فعل للإنسان ولا قدرة ، إذ الأفعال تحدث بغير قدرته .

ولا تقل إن أفعال المشركين هى أفعال الله .

ولا تقل إن العباد لا يستحقون ثواباً على طاعة ، ولا عقاباً على معصية ، كما قالت (الجبرية) .

فكل هذه الطوائف لا إيمان عندها بالقرآن ولا بالسنة ، وقد أساءوا الظن بالله وبالرسول وبالصحابة ، ولم يفرقوا بين الخير والشر ، ولا بين الفضيلة والرذيلة ، ولم تحمل آراؤهم خيراً للبشرية ، ولم ترتض لها حياة طيبة كريمة .

بأدب العبودية تأدب وقم بالمطالب ، وللذات المقدسة العلية أثبت الصفات والأفعال .

فالله الذى لا إله إلا هو ربنا وخالقنا لا يُعْدَلُ به سواه فى محبة وطاعة وتعظيم ، ولا ينبغى لسواه حب وخشية وإنابة ورجاء وخضوع وتذلل .

(هو الله الذى لا إله إلا هو فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سمياً)
مريم ٦٥

روحانيات
للعارف امام ابن القيم

إن أكثر إيمان المؤمنين اليوم إيمان مجمل . أما الإيمان المفصل الذى جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، مَعرفة وإقراراً ومحبة ، فهو إيمان خواص الأمة .

ومن الناس من يكون إيمانهم إقراراً بوجود الخالق ، وأنه وحده خالق السموات والأرض وما بينهما . وقد أقر بذلك عبّاد الأصنام من قبل .

وهناك آخرون ، الإيمان عندهم جحد صفات الرب التى وصف بها نفسه ووصفه بها رسوله صلى الله عليه وسلم .

وآخرون الإيمان عندهم عبادة الله بحكم أذواقهم ومواجيدهم وما تهواه نفوسهم ، من غير تقييد بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وآخرون الإيمان عندهم فيما وجدوا عليه آباءهم وأسلافهم .

وآخرون الإيمان عندهم فى مكارم الأخلاق وحسن المعاملة .

وآخرون الإيمان عندهم فى التجرد من الدنيا والزهد فيها ، وتفريغ القلب منها .

وكل هؤلاء لم يعرفوا حقائق الإيمان ولم يقوموا بمطالبه ، وإنما انسلخوا عنه علماً وعملا .

فالإيمان حقيقة مركبة من معرفة ما جاء به الرسول علماً ، والتصديق به

عقداً ، والإقرار به نطقاً ، والانقياد له محبة وخضوعاً ، والعمل به باطناً وظاهراً ، والدعوة إليه بحسب الإمكان .

وكمال الإيمان فى الحب فى الله ، والبغض فى الله ، والعطاء لله ، والمنع لله .

وقال :

كل إسلام لا ينفذ صاحبه منه إلى حقيقة الإيمان الباطنة ليس بنافع حتى يكون معه شيء من الإيمان الباطن . وكل حقيقة باطنة لا يقوم صاحبها بشرائع الإسلام الظاهرة لا تنفع ولو كانت ما كانت . فلو تمزّق القلب بالمحبة والخوف ، ولم يتعبد بالأمر وظاهر الشرع لم ينجه ذلك من النار . كما أنه لو قام بظواهر الإسلام وليس فى باطنه حقيقة الإيمان لم ينجه ذلك من النار .

القرآن يدعو إلى الوحدانية

استمع معى إلى دعوة القرآن الكريم ، وإلى ما فيه من إرشاد وبيان عن الوحدانية .

يقول الله تبارك وتعالى :

(سبح لله مافى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم . له ملك السموات والأرض يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير . هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم . هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير . له ملك السموات والأرض وإلى الله ترجع الأمور . يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وهو عليم بذات الصدور) الحديد ١ — ٦

(لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون . هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم . هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم)الحشر ٢١ — ٢٤

* * *

(قل يا أيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون . ولا أنتم عابدون ما أعبد . ولا أنا عابد ما عبدتم . ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولى دين)
الكافرون

(قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد)
الصمد

* * *

وهكذا نرى أن بيان القرآن : قد يكون لإثبات عبادة الله تبارك وتعالى ، فيلزمنا ألا نشرك فى العبادة ، وألا نحبط الأعمال . فالتأليه لا يكون إلا لله . والعبادة لا تكون إلا لله . والدعاء لا يكون إلا لله . والقَسَمُ لا يكون إلا بالله . والنذر لا يكون إلا لله .

وقد يكون البيان لإثبات الأمر والنهى ، فيلزمنا ألا نقف موقف المعارضة أو التقصير .

وقد يكون البيان لإثبات جزاء الموحدين والمشركين فى الدنيا والآخرة . فيلزمنا ألا نجانب حقيقة الوحدانية ، وأن تكون وسيلتنا إلى الله الإيمان الصادق والعمل الصالح . وحسبنا من الإرشاد أن نذكر موقف النبى الكريم من آله وعشيرته . فلقد أبان أن الأحساب والأنساب لا تغنى من الله شيئاً .

يقول أبو هريرة رضى الله عنه : لما نزلت الآية الكريمة (وأنذر عشيرتك الأقربين) دعا النبى صلى الله عليه وسلم قريشاً فاجتمعوا ، فخصّ وعمّ ، فقال : « يا بنى كعب بن لُؤَى ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا بنى مُرَّةَ بن كعب ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا بنى عبد شمس ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا بنى عبد مناف ، أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بنى هاشم ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا بنى عبد المطلب ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا فاطمة ، أنقذى نفسك من النار ، فإنى لا أملك لكم من الله شيئاً ، غير أن لكم رحماً سأبُلُّهَا ببلالها » (أى أصلكم فى الدنيا بمقتضى القرابة ولكن لا أغنى عنكم من الله شيئاً) البخارى ومسلم .

وحسبنا من الإرشاد أيضاً قول الله عز وجل للنبى ، وقد أراد أن يستغفر لعمه أبى طالب (ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قُرْبَى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم) التوبة ١١٣

فإيماناً بك يا ربنا بحقيقة الوحدانية .

وإيماناً بما فى القرآن الكريم من سرٍّ وبيان وإرشاد .

وإيماناً بكل ما التزمه الرسل والخلفاء والأصحاب من عمل وطاعة وإنابة ، فهم حقاً الذين قد عبدوك بإخلاص ووحدانية .

ومن الشرك ومن أهله قد تَبَرَّأُوا فى كل زمان ومكان (إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده) الممتحنة ٤

روحانيات
للعارف الإمام ابن القيم

لما أعرض الناس عن تحكيم الكتاب والسنة ، واعتقدوا عدم الاكتفاء بهما ، وعرض لهم من ذلك فسادٌ فى نظرهم ، وظلمةٌ فى قلوبهم ، وكدرٌ فى أفهامهم ، ومحق فى عقولهم ، وجاءتهم دولة أخرى ، قامت فيها البدع مقام السنن ، والنفس مقام العقل ، والهوى مقام الرشد ، والضلال مقام الهدى ، والمنكر مقام المعروف ، والجهل مقام العلم ، والرياء مقام الإخلاص ، والباطل مقام الحق ، والكذب مقام الصدق ، والمداهنة مقام النصيحة ، والظلم مقام العدل ، فصارت الدولة والغلبة لهذه الأمور ، وأهلها هم المشار إليهم .

فإن رأيت هذه الأمور قد أقبلت ، وراياتها قد نصبت ، فبطن الأرض والله خير من ظهرها ، وقمم الجبال خير من سهولها ، ومخالطة الوحوش أسلم من مخالطة الناس .

اعصم النفس ولا تخالف سبيل المؤمنين

لقد أعرض أكثر المسلمين اليوم عن تعاليم الإسلام ، ولم يقيموا شعيرة من الشعائر ، واستهانوا بأوامره ، ولم يتمسكوا فى الظاهر ولافى الباطن بتعاليمه . وإن رأيت اليوم متديناً بين القوم ، فهو المقلد الذى لا يدرك فرقاً بين سنة وبدعة ، ولا يدرك فرقاً بين حق وباطل .

واليوم وقد صارت العقائد عند المسلمين لا حصر لها ولا عد ! . فللشيعة فرق وعقائد ، وللأشعرية فرق وعقائد ، وللمعتزلة فرق وعقائد ، والماتوريديّة فرق وعقائد ، وللصوفيّة فرق وعقائد .

واليوم لا نجد اتحاداً بين أبناء الإسلام ولا اعتصاماً ، وقد أمرنا سبحانه فقال : (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) آل عمران ١٠٧ .

وقد أمرنا بالقضاء على كل خلاف وكل تفرقة فقال سبحانه : (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء) .

(وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) .

(ولا تكونوا من المشركين . من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون) .

(ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المومنين نولّه ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً) .

وفى القديم نرى أن الصهيونية السبئية قد نشطت ، وحول أهدافها تجمعت،لتفرق بين أبناء الأمة الإسلامية ، وتكيد للإسلام والمسلمين ، وتفجعهم فى أمرائهم ! !

فتحالفت مع (كعب الأحبار) اليهودى ، (والهرمزان) المجوسى ، (وجفينة) الصليبى ، (وأبو لؤلؤة) المجوسى ، وتآمرت على قتل عمر أمير المؤمنين ، وقد قتل ! !

وفى عهد (عثمان) وعهد (على) ظهر اليهودى الملعون الخبيث (عبد الله ابن سبأ) ، وعاش مع عصابته السوداء وراء كل فتنة ، حتى هاج المجتمع الإسلامى وماج ، وتشكك فى كثير من ولاته !

فوقعت الواقعة وقامت الفتنة ، وقتل الخليفة (عثمان) ذو النورين ! فازداد الغليان واشتد الصراع بين أبناء المجتمع الإسلامى ، وحملوا السلاح وجهاً لوجه ، وإذا ما ارتفع صوت لإقرار السلام قام الخبيث الملعون (ابن سبأ) وأثار الفتنة بعد الفتنة !

ففى مرة تقوم فتنة الخوارج ، وتتم المؤامرة على قتل (على وعمرو بن العاص ومعاوية) ، ثم يُقتل أمير المؤمنين علىّ كرم الله وجهه بيد الملعون (عبد الرحمن ابن ملجم) ، فيُقْبِل (الحسن بن علىّ) لإقرار السلام ، ثم يتنازل (لمعاوية) عن رضاء نفس . فتتآمر الصهيونيـة السبئية وتدس السم للحسن ، وقد مات فيه ! !

وهكذا كانت تخطط الصهيونية السبئية بمكر وغدر المرة بعد الأخرى ، لتجدد المعارك والثورات بين المسلمين للقضاء على أمة القرآن وعلى عقيدتها .

وبعد (الخوارج) وبعـد (السبئية) ظهرت فرق متعددة ، نذكر بإيجاز ماتميزت به كل فرقة ، لنعرف مصدر الداء الذى قضى على وحدة الأمة الإسلامية وجعلها شيعاً وأحزاباً وطرائق قدداً . وبالخوارج نبتدىء .

[الخوارج] :

من الصعب حصر المذاهب عندهم لتباين الآراء وتعدد التيـارات ، غير أنه

يجمعهم رأى واحد ، وهو تكفير علىّ وعثمان وأصحاب الجمل والشيعة .

* * *

[الشيعة] :

يدين غلاة الشيعة بدين خاص ، وينفردون بمعتقدات خاصة ، ومن أشهر فرق غلاة الشيعة (الإسماعيلية) .

وكل كلامهم مزيج من الفلسفة اليونانية والفارسية والهندية والمسيحية . والدين عند الإسماعيلية باطن وظاهر ، وباطنه لا يحتاج إلى ظاهره من صلاة وصوم . . . . الخ . والسحر والتنجيم عندهم من ضروريات الحياة . وكل شىء فى الموجودات يفسرونه بحساب الجُمَّل !

* * *

[القرامطة] من فرق الشيعة .

وهى طائفة لا دين لها . وفى القديم خرّبوا الكعبة ، ودكّوا كل ركن من أركان البيت ، واقتلعوا الحجر الأسود من مكانه !

* * *

[الرافضة] من فرق الشيعة المتطرفين .

وهم أئمة فى التحريف وتأويل القرآن الكريم . وهم يقولون بوقوع الظلم من الله . وأن الله يريد كل فاحشة ومعصية !

ومن معتقداتهم أن الأئمة يعلمون علم ما كان وما يكون . ويعظمون ويقدسون المشاهد المقامة على القبور ، وهى عندهم أفضل من البلد الحرام ، ومن البيت المعمور ، ومن السموات السبع . يقول رافضى ملعون :

هى الطفوف فطف سبعاً بمعناها ... فما لمكة معنًى مثل معناها

أرض ولكنما السبع الشداد لها ... دانت وطأطأ أعلاها لأدناها

وفرق الشيعة كثيرة . وقد تباينت آراء جميع فرقهم ، وتعددت مذاهبهم .

* * *

[المعتزلة] :

من الفرق التى ظهرت فى مطلع القرن الثانى للهجرة . والمعتزلة تنفى الصفات عن الله ، وتؤمن بالعقل وتُخْضِع أحكام الإسلام لمقتضياته . ويقولون بخلق القرآن ، وقد فتحوا باب التأويل ، وضربوا القرآن بعضه ببعض . وفِرَق المعتزلة كما ذكر البغدادى اثنان وعشرون فرقة .

ومن المعتزلة (الفارابى) و (ابن سينا) و (ابن رشد) وقد أطلق عليهم بأنهم فلاسفة الإسلام ! (والزمخشرى) صاحب تفسير الكشاف ، وقد ظهر فى القرن الخامس .

* * *

[القدَرية] :

من الفرق التى قد تأثرت بالنصارى فى معتقداتهم ، ونفوا عن الذات العلية المقدسة الصفات ، وكفروا بالقدر خيره وشره . وجعلوا النصوص المحكمة الصريحة فى القرآن من المتشابه !

* * *

[الجبرية] :

من الفرق التى لا تنزه الله عن الظلم ، ولا يرون له حكمة فى أفعاله . وقالوا بجبر الإنسان على كل فعل يأتيه ، وأنه لا يستحق ثواباً على طاعة ، ولا عقاباً على معصية . وقد ردوا نصوص القرآن المحكمة الصريحة ! .

* * *

[الجهمية] :

من الفرق التى ردّت كل ما اتصفت به الذات العليـة المقدسة من صفات ، وردت كل ما علم من الدين بالضرورة ، ونصوص الرسل عن العلو والفوقية لله عز وجل . وقالوا إنه لا قدرة للعبد على عمل من الأعمال !

* * *

فـكل هـذه الفرق الضالة قد نالت من العقيدة الإسلامية . وقضت على إيمـان الـكثير من أبنائها ! ففقدوا مجدهم وعزتهم ، وصاروا فى مسخ كامل . وإنا لنرى عقوبة المسخ فى هذا الزمان وقد أصابت منا الأرواح والقلوب والعقول والأموال والأولاد ، فلا حول ولا قوة إلا بالله ! !

فبأدب العبودية تأدب . ولا تتبع غير سبيل المؤمنين إن أردت السلامة والنجاة . وآمن بالقرآن كما آمن به السلف ، فهم وحـدهم قد أحاطوا بحقائق المعارف وبواطن الحقائق ، وتحصنوا بالقرآن فساد بهم ، ثم سادوا العالم .

روحانيات
للعارف الإمام ابن القيم

أفضل ما اكتسبته النفوس ، وحصلته القلوب ، ونال به العبد الرفعة فى الدنيا والآخرة هو الإيمان والعلم . ولهذا قرن بينهما سبحانه فى قوله : (وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث) (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) وهؤلاء هم خاصة الوجود ولبُّه ، والمؤهلون للمراتب العالية . ولكن أكثر الناس غالطون فى حقيقة مسمى العلم والإيمان ، اللذَين بهما السعادة والرفعة وفى حقيقتهما . حتى إن كل طائفة تظن أن ما معها من العلم والإيمان هو هذا الذى تنال به السعادة وليس كذلك . بل أكثرهم ليس معهم إيمان ينجى ولا علم يرفع ، بل قد سدُّوا على نفوسهم طرق العلم والإيمان اللذَين جاء بهما الرسول صلى الله عليه وسلم ودعا إليهما الأمة . وكان عليهما هو وأصحابه من بعده وتابعوهم على منهاجهم وآثارهم . فكل طائفة اعتقدت أن العلم ما معها وفرحت به ، وتقطَّعوا أمرهم بينهم زُبُراً كل حزب بما لديهم فرحون ، وأكثر ما عندهم كلام وآراء وخرص .

ثم قال :

وقال لى شيخنا مرة فى وصف هؤلاء : إنهم طافوا على أرباب المذاهب ففازوا بأبخس المطالب . ويكفيك دليلا على أن هذا الذى عندهم ليس من عند الله، ما ترى فيه من التناقض والاختلاف ومصادمة بعضه لبعض .

قال تعالى : (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) وهذا

يدل على أن ما كان من عنـده سبحانه لا يختلف . وأن ما اختلف وتناقض فليس من عنـده .

وكيف تـكون الآراء والخيالات وسوانح الأفـكار ديناً يُدان به على الله ورسوله ؟ !

سبحانك هذا بهتان عظيم .

وأما الإيمان فأكثر الناس أو كلهم يدّعونه .

(وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) .

اربط على قلبك

ردِّد معى قول الحق تبارك وتعالى : (وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن نَدْعُوَ من دونه إلهاً لقد قلنا إذاً شططاً) الكهف ١٤

اربط على قلبك ، وبأدب العبودية تأدب ، ولا تجعل للشك موضعاً فى قلبك ، وحرر القلب من الاستعباد ومن العبودية لأى مخلوق مهما كان شأنه ، وتذوّق طعم الإيمان وبحلاوته تلذّذ . فالإيمان لا يكون بالتمنى ولا بالتحلّى ، بل الإيمان ما وقر فى القلب وصدّقه العمل .

قال سفيان بن عيينة : الإيمان قول وعمل ، فقيل له : أيزيد وينقص ؟ فقال : يزيد ما شاء الله وينقص حتى لا يبقى منه مثل هذه — وأشار بيده — فقيل له : وكيف نصنع بقوم عندنا يزعمون أن الإيمان قول بدون عمل ؟ فقال سفيان : كان القول قولهم قبل أن تقرر أحكام الإيمان وحدوده . إن الله عز وجل بعث محمداً إلى الناس كافة ليقولوا : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فقالوها . فلما علم الله عز وجل صدق ذلك من قلوبهم ، أمره أن يأمرهم بالهجرة إلى المدينة ، فلما فعلوا وعلم الله صدق ذلك من قلوبهم ، أمرهم بالرجوع إلى مكة ليقاتلوا آباءهم وأبناءهم ، حتى يقولوا كقولهم ، ويعملوا كعملهم ، ففعلوا ، حتى أتى أحدهم برأس أبيه وقال : يا رسول الله ، هذه رأس شيخ الكافرين . فلما علم الله صدق ذلك من قلوبهم ، أمرهم أن يطوفوا بالبيت تعبداً ففعلوا . فلما علم الله صدق ذلك من قلوبهم فيما تتابع عليهم من شرائع الإيمان وحدوده ، قال تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً) المائدة ٣

اربط على قلبك وبأدب العبودية تأدب . ولا تتبع هواك وإياك أن تتعلّق بكواذب الأمانى أو بما لايرجى حصوله . ولا تترك فرضاً ولا ترتكب محرماً . ولا تخدعك نغمة الحقيقة التى ينادى بها أصحاب الخبل والشطحات ، فتُعْرِض عن مظاهر الشريعة كإعراضهم ، فتنقلب على عقبيك كما انقلبوا . واحذر أن تضل بما يرددونه « من نظر إلى الناس بعين العلم مقتهم ، ومن نظر إليهم بعين الحقيقة عذرهم » .

فإن من الخير لنا أن نتأدب بأدب العبودية ، وأن نتمسك بدين قد أخبرتنا الرسل بحقائقه ، وأن نردِّد دائماً دعوة الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم « يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك . يامصرف القلوب صرف قلبى إلى طاعتك » .

اربط على قلبك وبأدب العبودية تأدب . فإن أصابت القلب نكسة فجدِّد الطلب والاجتهاد . فكم من قلوب منكوسة والمصابون لايشعرون بالنكسة . وكم من قلوب مفتونة قد فتنها الثناء الكاذب ، وكم من قلوب ممسوخة استعبدها الهوى فأفسدها وأضناها ، ومسخها النفاق فحطمها وأشقاها .

جدّد الطلب والاجتهاد وبأدب العبودية تأدب . وَأَحْيِ القلب بما قد شرع ، ولا تتعرض أمام مخلوق لمواطن القهر والإذلال ، وإذا تعاملت فبالباطل لا تتعامل . وإذا أحببت وواليت فلا تنفر المحبوب بتعدى الحدود وتضييع الحقوق . وإذا خاصمت وعاديت فألزِم قلبك التقوى والخشية . ومن كل الآفات خلّص القلب إن أردت الوصول به إلى المطالب العالية .

روحانيات

للعارف الإمام ابن القيم

اطلب القلب فى ثلاثة مواطن : عند سماع القرآن ، وفى مجالس الذكر ، وفى أوقات الخلوة ، فإن لم تجده فى هذه المواطن فسل الله أن يمنّ عليك بقلب فإنه لا قلب لك .

وقال :

القلب ستة مواطن يجول فيها : ثلاثة سافلة ، وثلاثة عالية .

فالسافلة : دنيا تزين له ، ونفس تحدّثه ، وعدو يوسوس له . فهذه مواطن الأرواح السافلة التى لاتزال تجول فيها .

والثلاثة العالية : علم يتبيّنُ له ، وعقل يرشده ، وإله يعبده . والقلوب جوّالةٌ فى هذه المواطن .

وقال :

من وطّن قلبه عند ربه سكن واستراح . ومن أرسله فى الناس اضطرب واشتد به القلق .

إن رمت النجاة فاحفظ أربعاً

احفظ اللحظات : لاتطلق العنان لنظرك . فكم من رجال نظروا إلى الحرام وحسبوه متعة . فالنظرة كما قيل : تولّد الخطرة ، والخطرة تولد الفكرة ، والفكرة تولد الشهوة ، والشهوة تولد العزيمة .

والنظرة كما أخبر نبينا صلى الله عليه وسلم « سهم مسموم من سهام إبليس » ويوصى النبى محذراً بقوله : « ياعلى : لا تتبع النظرة النظرة ، فإنما لك الأولى وليست لك الثانية » .

احفظ الخطرات : فالخطرات جيوش تزحف على القلوب ، وبالزحف تتوارد على النفس كواذب الأمانى وفوارغ الآمال ، فتدور النفس فيما ليس له حقيقة ، فينفلت الزمام ، وينطلق الهوى . فكن عالىَ الهمّة إن تزاحمت على قلبك الخواطر . فمن علت همته طابت حياته . وعند تزاحم الخواطر قدّم الأهم منها ولا تتردد . وإن وقعت فى حيرة من تزاحم الخواطر ، فاملأ القلب بخواطر الإيمان ، واحتكم إلى مطالب الشرع ولأوامره التزم . وألزم الجوارح فعل الطاعات ، ولا تضيع العمر فى اتباع الهوى وعمل الشيطان . فطوبى لعبد نهى النفس عن دواعى الطبع والهوى والشهوة ! .

احفظ الألفاظ : فكما قيل : إن الألسنة هى عن القلوب كاشفة . فكم من ألسنة قد أشاروا إلى أصحابها بالدين والزهد والعبادة ، وهى تفرى أعراض الأحياء والأموات بلا مبالاة ، ولا تنطق بما فيه ربح ولا زيادة !

فاحفظ لسانك من آفة الكلام ، فالمتكلم بالباطل آثم. ولسانك احفظ من آفة السكوت ، فالساكت عن الحق شيطان أخرس .

قال صلى الله عليه وسلم « إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقى

لها بالًا يرفعه الله بها درجات ، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقى لها بالًا يهوى بها فى نار جهنم » .

وأخيراً أو رابعاً : احفظ الخطوات . فكما قيل :

قدِّر لرجلك قبل الخطو موضعها   فمن علا زلقاً عن غرّةٍ زلجا

فكم من خطوات يخطوها الرجال وليس لهم فى النهاية إلا التدمير والفناء ! فإذا أردت السلامة فاخط إلى الخير دائماً .

روحانيات

للعارف الإمام ابن القيم

أنفع الدواء أن تشغل نفسك بالفكر فيما يعنيك . فالفكر فيما لا يعنى باب كل شر . ومن فكر فيما لا يعنيه فاته ما يعنيه ، واشتغل عن أنفع الأشياء له بما لا منفعة له فيه . فالفكر والخواطر والإرادة والهمة أحق شيء بالإصلاح من نفسك . فمن كان فى خواطره ومجالات فكره دنيئاً خسيساً لم يكن فى سائر أمره إلا دنيئاً خسيساً .

وقال :

ارجع إلى الله واطلبه من عينك وسمعك وقلبك ولسانك . ولا تشرد عنه من هذه الأربعة . فما رجع من رجع إليه بتوفيقه إلا منها . وما شرد من شرد عنه بخذلانه إلا منها . فالموفق يسمع ويبصر ويتكلم ويبطش بمولاه ، والمخذول يصدر ذلك عنه بنفسه وهواه .

سلاحك دعاؤك

قال نبينا صلى الله عليه وسلم : « الدعاء هو العبادة » وقرأ : (ادعونى أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين) غافر ٤٠

فقال أصحابه : أقريب ربنا فنناجيه ، أم بعيد فنناديه ؟ فنزلت (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون) البقرة ١٨٦ .

وفى القرآن الكريم (ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين) الأعراف ٥٥

(وادعوه خوفًا وطمعًا إن رحمة الله قريب من المحسنين) .

وفى السنة الشريفة ، قول نبينا صلى الله عليه وسلم : « سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل من فضله ، وما سئل الله شيئًا أحب إليه من العافية » .

« من لم يسأل الله يغضب عليه » .

« إن الله يحب الملحين فى الدعاء » .

« إن لربكم فى أيام دهركم نفحات فتعرضوا لنفحاته » .

فالدعاء يا أخى : من أقوى الأسباب التى تحقق الخير وتدفع الشر . والله سبحانه يحب من عباده طلب ما يحتاجون ، كما يحب منهم أن يرفعوا شكواهم إليه فى ذلة وخشوع . ومما قيل :

قالوا أتشكو إليه ما ليس يخفى عليه
فقلت ربى يرضى ذُل العبيد لديه

وقد يكون الدعاء للعبادة ، وقد يكون للمسألة ، وكلاهما يستلزم الآخر .

وإنك إن سألتنى عن أنفع الدعاء ، قلت : إنك إذا أقبلت على مولاك فأقبل عليه بقلبك ، واضرع إليه بذل العبودية ، وتوسل إليه بعز الربوبية ، واطلب منه العون على مرضاته ، ولا تحمل همّ الإجابة . فرضى الله عن أمير المؤمنين عمر إذ يقول : « إنى لا أحمل همّ الإجابة وإنما أحمل هم الدعاء ، فإذا أُلهمت الدعاء فإن الإجابة معه » .

اضرع إلى مولاك بذل العبودية ، وتوسل إليه بعز الربوبية ، ولا ترفع الصوت عند الدعاء ، فالله سبحانه يقول : (ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين . ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً إن رحمة الله قريب من المحسنين) الأعراف ٥٥ ، ٥٦

وبهذا علَّم النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه وهم فى سفر معه فقال : « اربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً ، إنكم تدعون سميعاً قريباً أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته » .

اضرع إلى مولاك بذل العبودية ، وتوسل إليه بعز الربوبية ، وتجنب الدعوة الضارّة التى تضرك وتضر الغير . فلقد طالبنا النبى صلى الله عليه وسلم أن ندعو بخير فقال : « لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير ، فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون » .

وإنك إذا سألتنى عن الدعاء المأثور قلت : إن من أفضل ما تذكر به ربك عند الكرب قول النبى صلى الله عليه وسلم : « إنى لأعلم كلمة لا يقولها مكروب إلا فرّج الله عنه ، كلمة أخى يونس : لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين » الترمذى .

وقول النبى صلى الله عليه وسلم عند الهمّ والحزن « اللهم إنى عبدك ، ابن

عبدك ، ابن أمتك ، ناصيتي بيدك ، ماضٍ فيّ حكمك ، عدلٌ فيّ قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك . أو استأثرت به في علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن الكريم ربيع قلبي ، ونور بصري ، وجلاء حزني ، وذهاب همي » ـ أحمد .

لا تبطل الدعاء : إن كل ما يناقض حكمة الله ويناقض ما شرع مبطلٌ للدعاء .

قال نبينا صلى الله عليه وسلم : « إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : (ياأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم) . وقال : (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم) . ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يده إلى السماء : يا ربّ ، يا ربّ ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغُذِيَ بالحرام ، فأنّى يُستجاب لذلك ؟! » .

وقيل : أصاب بني إسرائيل بلاء ، فخرجوا مخرجاً ، فأوحى الله عز وجل إلى نبيهم أن أخبرهم : إنكم تخرجون إلى الصعيد بأبدان نجسة ، وترفعون إليّ أكُفًّا قد سفكتم بها الدماء ، وملأتم بها بيوتكم من الحرام . الآن حين اشتد غضبي عليكم لن تزدادوا مني إلا بعداً !

روحانيات

للعارف الإمام ابن القيم

إذا شهدت القلوب من القرآن ملكا عظيما رحيما جوادا جميلا هذا شأنه ، فكيف لا تحبه وتتنافس فى القرب منه ، وتنفق أنفاسها فى التودد إليه ، ويكون أحب إليها من كل ما سواه ، ورضاه آثر عندها من رضا كل ما سواه .

وكيف لا تلهج بذكره ، ويصير حبه والشوق إليه ، والأنس به ، هو غذاؤها وقوتها ودواؤها ، بحيث إن فقدت ذلك فسدت وهلكت ولم تنتفع بحياتها .

سبحان ربك رب العزة عما يصفون

الكون بما فيه من الأدلة والشواهد والآيات والمعانى والأسرار ، مثبت لحقائق أسماء الله الحسنى ، ومثبت لصفاته التى هى من لوازم ذاته . فالذات العلية المقدسة ، جامعة للأسماء الحسنى والصفات العليا .

فبأدب العبودية تأدب . واحذر أن تفسد معانى الأسماء والصفات للذات العلية ، بتمثيل أو تشبيه أو تعطيل .

فسبحان رب العزة المنزهة ذاته عما يصفون . إله تنزهت أفعاله وصفاته من كل عيب ومن كل نقص ، وبصفات الكمال اتصفت ذاته العلية .

فبالعزة التامة اتصف ربى . فلا كمال لقدرته إلا من عزته .

وبالقدرة اتصف ربى . فمن كمال قدرته خلق السموات والأرض وما أودع فيهن .

وبالإرادة اتصف ربى . فهو الفعال لما يريد . فلا خلل فى أفعاله ولا إفساد ولا شر ولا جور . دلت أفعاله على كمال المبدع .

وبالحكمة اتصف ربى . فالحكمة من كمال علمه .

وبالعظمة اتصف ربى . فمن كمال عظمته ارتفاع عرشه فوق كل مافى الأكوان .

وبالحياة اتصف ربى . فلا تأخذه سنة ولا نوم ولا موت .

وبالقيومية اتصف ربى . فهو سبحانه قائم بنفسه من غير احتياج إلى غيره .

وبالعلم اتصف ربى . فهو سبحانه أحاط كل شىء بعلمه ، فلايخفى عليه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ،

وبالرحمة اتصف ربى . فمن فيض رحمته لا يحرم إلا الأشقياء .

وبالغنى اتصف ربى . فهو سبحانه الغنى عن كل ما سواه . وكل ذرة من خير ورحمة لا تمنح إلا بفضله . وكل ذرة من شر لا تقع إلا بحكمته وعدله .

وبالعطاء اتصف ربى . فهو سبحانه يعطى كل مخلوق من خزائن خيره من غير طمع منه فى عوض أو احتياج .

وبالسمع اتصف ربى . فهو سبحانه يسمع السر والجهر من القول وإن اختلفت الألسنة وضجت الأصوات عند الطلب ، دون اشتباه ودون ملل .

وبالبصر اتصف ربى . فهو سبحانه يبصر مافوق السموات السبع وما بينهما، ويبصر ما على الأرض وما تحت الثرى » ويبصر دبيب النملة السوداء فى الليلة الظلماء على الصخرة الصماء ، ويبصر ماتحويه بواطن البحار والمحيطات .

فسبحان رب العزة المنزه عما يصفون .

سبحان رب العزة بديع الأفعال، عظيم الجود والعطاء والإحسان.

سبحان رب العزة الذى لا يحد له كمال ، ولا يوصف له جلال ولا جمال .

سبحان رب العزة الذى لا يضاف إلى أسمائه قبح ولا شر ، فالحسن والجمال والسلام من لوازم أسمائه .

سبحان رب العزة الذى لا يضاف إلى أفعاله وصفاته ظلم ولا جور . فالحكمة والخير والعدل من لوازم أفعاله وصفاته .

سبحان رب العزة، فلقد أثنى سبحانه على نفسه ولا قدرة لى ولا لأحد من خلقه أن يحصى ثناء عليه .

سبحان رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

روحانيات

للعارف الإمام ابن القيم

من الناس من يعرف الله بالجود والعطاء والإفضال والإحسان . ومنهم من يعرفه بالعفو والحلم والتجاوز . ومنهم من يعرفه بالبطش والانتقام . ومنهم من يعرفه بالعلم والحكمة ، ومنهم من يعرفه بالعزة والكبرياء ، ومنهم من يعرفه بالرحمة والبر واللطف . ومنهم من يعرفه بالقهر والملك . ومنهم من يعرفه بإجابة دعوته وإغاثة لهفته وقضاء حاجته .

وأعم هؤلاء معرفة من عرفه من كلامه . فإنه يعرف ربًّا قد اجتمعت له صفات الكمال ونعوت الجلال ، منزه عن المثال ، برىء من النقائص والعيوب. له كل اسم حسن وكل وصف كمال . فعال لما يريد . فوق كل شيء . ومع كل شيء . وقادر على كل شيء . ومقيم لكل شيء . آمرٌ ناهٍ . أكبر من كل شيء . وأجمل من كل شيء . أرحم الراحمين . وأقدر القادرين . وأحكم الحاكمين . أنزل القرآن لتعريف عباده به ، وبصراطه الموصل إليه ، وبحال السالكين بعد الوصول إليه .

تقلب فى منازل المحبة

إن أردت التقلب فى منازل المحبة ، ورغبت أن تكون من الزاهدين · فإلى دنياك انظر بالبصيرة لا بالبصر ، وخلّص القلب من كل ماحوت وجمعت · ومن دنس الظاهر والباطن طهر القلب والروح والجوارح · وعظم الأمر والنهى . ولا تقدم محبة النفس والأهل والمال والولد على محبة الله ورسوله ·

(قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لايهدى القوم الفاسقين) ـ التوبة ٢٤ ·

ورضى الله عن القائل : ادّعى قوم المحبة فأنزل الله آية المحنة : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) ـ آل عمران ٣١ .

فيامن ترجو التقلب فى منازل المحبة · فبأدب العبودية تأدب ، وحرّك العزيمة إن فترت ، وألهب الهمة إن توانت ، وعاتب النفس على الدوام ، ولا تنصرف عن باب الذل لمولاك ، ومع الواقفين أمامه تنافس ، إن أردت للنفس إشراقاً، وأردت التقلب فى منازل المحبة.

ورضى الله عن العارف الجنيد فلقد قال فى المحبة « عبد ذاهب عن نفسه ، متصل بذكر ربه ، قائم بأداء حقوقه ، ناظر إليه بقلبه ، أحرقت قلبه أنوار هيبته ، وصفا مشربه من كأس وده ، فكشف له الجبار من أستار غيبته · فإن تكلم فبالله ، وإن نطق نعن الله ، وإن تحرك فبأمر الله ، وإن سكن فمع الله · فهو بالله ، ولله ، ومع الله » ·

روحانيات

للعارف الإمام ابن القيم

من غرائب الأشياء :

أن تعرف الله ولا تحبه .

وأن تسمع داعى الله ولا تجيب ·

وأن تعرف الربح إن تعاملت مع الله وتحب أن تعامل غيره ·

وأن تعرف غضب الله وتتعرض لغضبه ·

وأن تصاب بألم المعاصى ولا تطلب الخلاص بالطاعة ·

وأن تعصر القلب بغير حديثه ، ولا تطلب النجاة وتقبل على مناجاته .

المتصوف الصادق

سئل القصاب عن المتصوف الصادق فقال :

« أخلاق كريمة ، ظهرت فى زمان كريم ، مع قوم كرام » .

فمن المتصوف الصادق إذاً ؟

إنك إذا وجدته : تراه من أكرم الناس فى الأخلاق وفى العشرة ، وترى الأدب منه يفيض على لسانه وجوارحه وحركاته وسكناته ، فيصونه أدبه من مظانّ السوء ، وسواقط الأخلاق ، وتافه الأعمال .

إنك إذا وجدته : ترى الظاهر منه كالباطن ، فنفسه فى صفاء ، وقلبه فى نقاء ، وقوله صادق ، وأعماله خالصة من إرادات النفس ومن شوائب الحظوظ . يخفض الجناح ، ويسهّل الصعب ، ويهوّن الشديد .

إنك إذا وجدته : تراه فى صبر وعلى يقين ، فلا يستفزه المبطلون ، ولا يستخفه الذين لا يوقنون . فهو مع الله بلا خلق ، ومع الخلق بلا نفس . لا ينتظر من الخلق حمداً باللسان ، ولا منزلة فى القلب ، ولا يبتغى من أحد جزاء ولا شكوراً ، ولا منزلة ولا جاهاً . فكل الخلق فى نظره هم وأصحاب القبور سواء ، لا يملكون ولا يقدرون .

فحذار أن تنظر إلى من يدّعى بأنه قد وصل واتصل ،فالحقيقة أنه من مولاه قد أعرض وانفصل .

روحانيات
للعارف الإمام ابن القيم

الطريق إلى الله خالٍ من أهل الشك ، ومن الذين يتبعون الشهوات .

وهو معمور بأهل اليقين والصبر ، وهم كالأعلام على الطريق .

(وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) السجدة ٢٤

وقال :

كل من آثر الدنيا من أهل العلم واستحبها ، فلا بد أن يقول على الله غير الحق فى فتواه وحكمه وخبره وإلزامه ، فأحكام الله كثيراً ما تأتى على خلاف أغراض الناس ، ولا سيما أهل الرياسة والذين يتبعون الشهوات .

قال تعالى :

(فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات) مريم ٥٩ .

(فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عَرَض هذا الأدنى ويقولون سيُغفر لنا وإن يأتهم عَرَض مثله يأخذوه ، ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون) الأعراف ١٦٩

(واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) .

الأعراف ١٧٥ ، ١٧٦

* * *

وقال :

علماء السوء جلسوا على باب الجنة يدعون الناس إليها بأقوالهم ، ويدعونهم إلى النار بأفعالهم . فكلما قالت أقوالهم للناس هلمُّوا ، قالت أفعالهم لا تسمعوا منهم ، فلو كان ما دعوا إليه حقاً لكانوا أول المستجيبين له .

فهم فى الصورة أَدلاَّء ، وفى الحقيقة قُطَّاع طريق .

* * *

الإنسان خلاصة المخلوقات

يقول الله تبارك وتعالى: (ولقد كرّمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) الإسراء ٧٠

وفى الأثر الإلهى: «ابن آدم: خلقتك لنفسى وخلقت كل شىء لك. فبحقى عليك لا تشتغل بما خلقته لك عما خلقتك له. ابن آدم: خلقتك لنفسى فلا تلعب. وتكفلت برزقك فلا تتعب. ابن آدم: اطلبنى تجدنى، فإن وجدتنى وجدت كل شىء، وإن فُتّك فاتك كل شىء. وأنا أحب إليك من كل شىء».

«ما من مخلوق اعتصم بمخلوق دونى إلا قطعت أسباب السموات والأرض دونه. فإن سألنى لم أعطه، وإن دعانى لم أجبه، وإن استغفرنى لم أغفر له. وما من مخلوق اعتصم بى دون خلقى، إلا ضمنت السموات والأرض رزقه. فإن سألنى أعطيته، وإن دعانى أجبته، وإن استغفرنى غفرت له».

تبارك الله رب العظمة والقدرة. به نعتصم. فبيده سبحانه خلق آدم، ومن روحه نفخ فيه، وعلّمه كل الأسماء، وأمر الملائكة أن تسجد له فسجدت. وامتنع عن السجود إبليس فعليه حلّت اللعنة، واستحق البعد من رحمة الله ومن قربه، فصار من الهالكين.

(وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا) ـ الكهف ٥٠.

تبارك الله رب العظمة والقدرة. لا نعتصم بمخلوق دونه. فلقد جعل للإنسان

دون سائر المخلوقات شأناً . فاصطفى منه الخليل والنبي والرسول والكليم والولى . وأنزل عليه التوراة والإنجيل والقرآن دون غيره ، وأقام عليه حَفَظَةً من الملائكة ، فى نومه ويقظته ، وفى ظعنه وإقامته .

تبارك الله رب العظمة والقدرة ، لانعتصم بمخلوق دونه .

فلقد جعل الإنسان محل حكمته ومستودع أسراره . فحمّله الأمانة وقد أشفقن من حملها السموات والأرض والجبال وأبَيْن حملها . وحتى لايضل ولا يشقى هداه إلى أبواب العلم والمعرفة ، ونصب الصراط المستقيم أمامه .

* * *

أيها الإنسان : بأدب العبودية تأدب . ولا تعتصم بالمخلوق واعتصم بالله . فلقد استخلفك وآثرك على غيرك ، وعلى سواك كرّمك وفضلك.

اعتصم بالله ولا تتخذ لك ولياً وكافياً وحسيباً فى كافة الأمور سواه .

وإذا أردت أن تفوز بالحب وتسعد بموالاة أهل الملأ الأعلى ، فلا تكن قاسى القلب،ولا يمتد بك الأمل ، فإن امتداد الأمل ينسيك الآخرة . وإذا أردت نوراً هادياً لتضاء لك كل الجهات، ولتشرق لك كل الساحات ، فأقبل على الله بصدق (ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) .

وإذا أردت أن تكشف الطريق أمامك لترى ما فيه من عوارض وعوائق وثغرات، وأن لا تشارك الجهال فى أعمالهم،وتضمن لنفسك السلامة من كل عطب أصابهم، فلا تعتمد على ما أوتيت من قوة علميـة ثم تعطل القوة العمليـة . فالحق انتصر دائماً وأمر بالمعروف وانه عن المنكر . وخالف كل من يعمل بالزور والشهوة والهوى والعادات .

وإذا أردت أن تعرف من أى الأنواع أنت فى قول الله عز وجل : (فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات) ـ فاطر ٣٢ .

فإن كنت مؤمناً موحداً مصدقاً بالثواب والعقاب ، لكن سيطرت عليك الأهواء والعادات ، فأنت الظالم لنفسك !

(ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) ·
الأعراف ٢٣

(لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين) ـ الأنبياء ٨٧ .

(رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى ، فغفر له إنه هو الغفور الرحيم) .
القصص ١٦

وإن كنت لدار الغرور مجافياً ، وإلى دار الخلود منيباً ، ولم تفرط فى فرض ولا واجب ، ولم تظلم أحداً ، ولم تعتد على حق له : فأنت المقتصد .

وإن كنت مملوء القلب بمعرفة الله ، وعمرته بحبه وبخشيته وبرجائه وبمراقبته · وتريد ربك بما يريد لا بما تريد · وفى منازل العبودية تتقلب فى ليلك ونهارك ·

فأنت من الأبرار المقربين السابقين بالخيرات .

روحانيات

للعارف الإمام ابن القيم

يامن هو من أهل الخبرة . هل عرفت قيمة نفسك ؟

إنما خلقت الأكوان كلها لك !

يامن غُذِّى بلبان البر ، وَقُلِّب بأيدى الألطاف .

كل الأشياء شجرة وأنت فيها الثمرة . وصورة وأنت المعنى . وصدف وأنت الدُّر .

متى رُمت طلبى فاطلبنى تجدنى منك قريباً .

ولا تطلبنى من غيرك فأنا أقرب إليك منه .

لو عرفت قدر نفسك عندنا ما أهنتها بالمعاصى .

إنما أبعدنا إبليس إذ لم يسجد لك وأنت فى صلب أبيك .

فواعجباً كيف صالحته وتركتنا ؟!

لو كان فى قلبك محبة لظهرت آثارها على جسدك !

يامن تحسن الظن بربك

« أنا عند حسن ظن عبدى بى فليظن بى ماشاء » أثر إلهى .

إن كنت تحسن الظن بربك وتطمع فى رحمته وعفوه : فلا ترتكب الكبائر والمحرمات ، ولا تحارب أولياءه وتوالى أعداءه ، ولا تغتر بعاجل الدنيا وترتضيها عن الآخرة بديلا . ولا تلقى الله وأنت تحمل مظالم العباد فى الأموال والأعراض ! .

إن كنت تحسن الظن بربك وتطمع فى رحمته وعفوه : فاتخذ الرسول لك قدوة ، واذكر ما كان عليه وهو فى مرض الموت . فلقد سأل أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها عن سبع من الدنانير كان لا يملك سواها . فلما قدمتها له رفع الدنانير السبعة على كفه وقال : ياعائشة ، ماظن محمد إذا قدم على ربه وهو يحمل من دنياه الفانية تلك الدنانير ! وزِّعوها على الفقراء والمساكين ولا تبقوها ! ! .

إن كنت تحسن الظن بربك وتطمع فى رحمته وعفوه : فاقتد بالصديق واذكر قوله « إنى لا آمن مكر الله ولو كانت إحدى رجلىّ فى الجنة » .

« والله لوددت أنى كنت طيراً يقع على الشجر ، ويأكل من الثمر ، ثم يطير وليس عليه حساب ولا عذاب » .

إن كنت تحسن الظن بربك وتطمع فى رحمته وعفوه : فاقتد بأمير المؤمنين عمر واذكر قوله « إنى أود أن أنجو فلا أجر لى ولا وزر » .

«لو نادى منادٍ من السماء: أيها الناس ، إنكم داخلون الجنة كلكم إلا رجلا واحداً لخفت أن أكون أنا هو . ولو نادى منادٍ وقال : إنكم داخلون النار إلا رجلا واحداً لرجوت أن أكون أنا هو » .

إن كنت تحسن الظن بربك وتطمع فى رحمتـه وعفوه : فاقتد بعثمان رضى الله عنه واذكر قوله « لو أننى بين الجنة والنار ، فلا أدرى إلى أيهما يؤمر بى . فليتنى أكون رماداً قبل أن أعلم المصير » .

إن كنت تحسن الظن بربك وتطمع فى رحمته وعفوه : فاقتد بعلى كرم الله وجهه ، واذكره وهو يعبر عن خوفه من اثنين : من طول الأمل ومن اتباع الهوى . فطول الأمل كما قال ، ينسى الآخرة . واتباع الهوى ، يصد عن الحق .

إن كنت تحسن الظن بربك وتطمع فى رحمته وعفوه : فاقتد بأبى الدرداء رضى الله عنه واذكر قوله « لو تعلمون ما أنتم لاقون بعـد الموت ، لما أكلتم طعاماً على شهوة ، ولا شربتم شراباً على شهوة ، وما دخلتم بيتاً تستظلون فيه ، ولخرجتم إلى الصعدات تضربون صدوركم وتبكون على أنفسكم » .

إن كنت تحسن الظن بربك وتطمع فى رحمتـه وعفوه : فبأدب العبودية تأدب ، واقتد بالسادة العارفين ، وأخلص فى العمل ، ولا تتبع الهوى ، وأدن نفسك على الدوام . فرضى الله عن الحسن البصرى إذ يقول « إن المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل ، وإن الفاجر أساء الظن بربه فأساء العمل » .

روحانيات

للعارف الإمام ابن القيم

يا مغروراً بالأمانى . بترك سجدة واحدة لعن إبليس وأهبط من منزل العز .

وبأكل آدم من الشجرة أخرج من الجنة .

وبكف من دم يبعد القاتل عن الجنة .

وبدخول حشفة فيما لا يحل يقتل الفاعل .

وبشرب قطرات من الخمر يجلد الظهر .

وبدراهم ثلاث تقطع اليد .

فكيف يا مغرور تأمن من فى النار يحبسك لارتكابك المعاصى !

* * *

وقال :

من علامات السعادة والفلاح : أن العبد كلما زيد فى علمه زيد فى تواضعه ورحمته . وكلما زيد فى عمله زيد فى خوفه وحذره ، وكلما زيد فى عمره نقص من حرصه . وكلما زيد فى ماله زيد فى سخائه وبذله . وكلما زيد فى قدره وجاهه زيد فى قربه من الناس وقضاء حوائجهم والتواضع لهم .

وعلامات الشقاوة : أنه كلما زيد فى علمه زيد فى كبره وتيهه . وكلما زيد فى عمله زيد فى فخره واحتقاره للناس وحسن ظنه بنفسه . وكلما زيد فى عمره زيد فى حرصه . وكلما زيد فى ماله زيد فى بخله وإمساكه . وكلما زيد فى قدره وجاهه زيد فى كبره وتيهه . وهذه الأمور ابتلاء من الله وامتحان يبتلى بها عباده . فيسعد بها أقوام ويشقى بها أقوام . وكذلك الكرامات امتحان وابتلاء كالملك والسلطان والمال . قال تعالى عن نبيه سليمان لما رأى عرش بلقيس عنده (هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر) .

فالنعم ابتلاء من الله وامتحان . يظهر بها شكر الشكور وكفر الكفور. كما أن المحن بلوى منه سبحانه . فهو يبتلى بالنعم كما يبتلى بالمصائب .

قال تعالى :

(فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعّمه فيقول ربى أكرمن . وأما إذا ما ابتلاه فَقَدَرَ عليه رزقه فيقول ربى أهانن . كلا) أى ليس كل من وسّعت عليه رزقه وابتليته بكون ذلك إهانة منى له .

تعسَ عبدُ الدِّينار

قال تعالى (ياأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد) فاطر ١٥

افتقار العالم إلى خالقه ، أمرٌ ذاتىٌّ لا يعلَّل . فيستحيل أن يكون العالم إلا فقيراً . وغنَى الخالق ، أمرٌ ذاتىّ لا يعلّل . فيستحيل أن يكون الخالق إلا غنياً . فليس الغنى فى ذهب ولا فى فضة ولا فى خيل مسوّمة ولا أنعام ولا حرث ، فما كل ذلك إلا العوارى التى لا بد وأن تزول ، والودائع التى لا بد وأن ترد .

قال تعالى : (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شىء مقتدراً . المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا)الكهف ٤٥ ، ٤٦ .

فبأدب العبودية تأدب . ولا تجعل الماديَّات أكبر همك ، فتكون لك المطلب والشاغل .

قال نبينا صلى الله عليه وسلم : « ليس الغنى عن كثرة العرَض ، ولكن الغنى غنى النفس » .

« من أصبح والدنيا أكبر همه ، جعل الله فقره بين عينيه ، وشتّت عليه شمله ، ولم يأته من الدنيا إلا ماقدّر له . ومن أصبح والآخرة أكبر همه ، جعل الله غناه فى قلبه ، وجمع عليه شمله ، وأتته الدنيا وهى راغمة ، وكان الله بكل شىء إليه أسرع » .

« يقول العبد : مالى ، مالى . وإنما له من ماله ثلاث : ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى ، أو أعطى فاقتنى ، وما سوى ذلك فهو ذاهب وَتاركه للناس » .

فبأدب العبودية تأدب . ولا تجعل الماديَّات أكبر همك ، فتكون لك المطلب والشاغل .

فإن رمت الغنى فاجعل الله لك القصد والغاية .

وحسبك أن تعلم ، بأن السيدة الحبيبة المطهرة فاطمة بنت النبى صلى الله عليه وسلم ، قد طلبت العطاء من النبى بعد ما أفاء الله عليه ، وسألته أن يهيِّىء لها الراحة لتستريح من الشقاء الذى لازمها ، وهى تقوم بواجب الخدمة لأكرم الأزواج وأزكى الأبناء ، فيعطى النبى لفاطمة خيراً مما طلبت ، ويعلمها أن تقول : سبحان الله ، والحمد لله ، والله أكبر ، دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين . !

روى أن علياً كرم الله وجهه قال لعلىِّ بن أعبُد : ألا أحدثك عنى وعن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت من أحب أهله إليه ، وكانت عندى ؟ قال : بلى ، قال : إنها جرَّت بالرحا ، حتى أثرت فى يدها ، واستقت بالقربة ، حتى أثرت فى نحرها ، وكنست البيت ، حتى اغبرَّت ثيابها ، فأتى النبىَّ صلى الله عليه وسلم خدمٌ ، فقلت : لو أتيتِ أباكِ فسألتيه خادماً ؟ فأتته فوجدت عنده حُدَّاثاً ، فرجعت ، فأتاها من الغد ، فقال : ما كان حاجتك ؟ وسكتت . فقلت : أنا أحدثك يا رسول الله : جرت بالرحا حتى أثرت فى يدها ، وحملت بالقربة حتى أثرت فى نحرها . فلما أن جاء الخدم ، أمرتها أن تأتيك فتستخدمُك خادماً ، يقيها حر ما هى فيه . قال : « اتقى الله يا فاطمة ، وأدى فريضة ربك ، واعملى عمل أهلك ، وإذا أخذتِ مضجعكِ فسبحى ثلاثاً وثلاثين ، واحمدى ثلاثاً وثلاثين ، وكبرى أربعاً وثلاثين ، فتلك مائة فهى خير لك » البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى

هكذا كانت تعيش الصفوة الطاهرة ، وهكذا كانت تنظر إلى دنيانا الفانية ولا تريدها ، فكل مادياتها فانية وزائلة !

وقد قيل : فرّغ خاطرك للهمّ بما أمرت به ، ولا تشغله بما ضمن لك . فإن الرزق والأجل قرينان مضمونان . فما دام الأجل باقياً كان الرزق آتياً ، وإذا سدّ عليك بحكمته طريقاً من طرقه ، فتح عليك برحمته طريقاً أنفع لك منه .

فتأمل حال الجنين يأتيه غذاؤه من طريق واحدة - هي السرّة - فإذا خرج من بطن أمه ، وانقطعت تلك الطريق . فتح الله له طريقين ، وأجرى له فيهما رزقاً أطيب وألذّ من الأول ، لبناً خالصاً سائغاً ، فإذا تمت مدة الرضاع وانقطعت الطريقان بالفطام ، فتح له طرقاً أربعة : طعامان وشرابان ، فالطعامان من الحيوان النبات ، والشرابان من المياه والألبان ، وما يضاف إليهما من المنافع والملاذ . فإذا مات انقطعت عنه هذه الطرق الأربعة ، لكنه سبحانه فتح له إن كان سعيداً طرقاً ثمانية ، وهى أبواب الجنة الثمانية ، يدخل من أيها شاء .

والعبد لجهله بمصالح نفسه ، وجهله بكرم ربه وحكمته ولطفه ، لا يعرف التفاوت بين ما منع منه وبين ما ادّخر له . بل هو مولعٌ بحب العاجل وإن كان دنيئاً ، وبقلة الرغبة فى الآجل وإن كان علياً . ولو أنصف العبد ربه ، لعلم أن فضله عليه فيما منعه من الدنيا ولذاتها ونعيمها أعظم من فضله عليه فيما آتاه من ذلك .

ورضى الله عن إبراهيم بن أدهم إذ يقول : « طلبنا الفقر فاستقبلنا الغنى . وطلب الناس الغنى فاستقبلهم الفقر » .

فبأدب العبودية تأدب . واجعل غناك فى قلبك ، لتنال الفيض من مواهب ربك وعطائه .

روحانيات

للعارف الإمام ابن القيم

أقام الله سبحانه هذا الخلق بين الأمر والنهى ، والعطاء والمنع . فافترقوا فرقتين : فرقة قابلت أمره بالترك ، ونهيه بالارتكاب ، وعطاءه بالغفلة عن الشكر ، ومنعه بالسخط ، وهؤلاء أعداؤه ، وفيهم من العداوة بحسب ما فيهم من ذلك .

وقسم قالوا : إنما نحن عبيدك ، فإن أمرتنا سارعنا إلى الإجابة ، وإن نهيتنا أمسكنا نفوسنا وكففناها عما نهيتنا عنه ، وإن أعطيتنا حمدناك وشكرناك ، وإن منعتنا تضرعنا إليك وذكرناك . فليس بين هؤلاء وبين الجنة إلا ستر الحياة الدنيا . فإذا مزّقه عليهم الموت صاروا إلى النعيم المقيم وقرة الأعين . كما أن أولئك ليس بينهم وبين النار إلا سُتر الحياة ، فإذا مزّقه الموت صاروا إلى الحسرة والألم .

فإذا تصادمت جيوش الدنيا والآخرة فى قلبك ، وأردت أن تعلم من أى الفريقين أنت ، فانظر مع من تّميل منهما ومع من تقاتل . إذ لا يمكنك الوقوف بين الجيشين فأنت مع أحدهما لا محالة .

فالفريق الأول استغشوا الهوى فخالفوه ، واستنصحوا العقل فشاوروه ، وفرغوا قلوبهم للفكر فيما خلقوا له ، وجوارحهم للعمل بما أمروا به ، وأوقاتهم لعمارتها بما يعمِّر منازلهم فى الآخرة ، واستظهروا على سرعة الأجل بالمبادرة إلى الأعمال ، وسكنوا الدنيا وقلوبهم عنها مسافرة . واستوطنوا الآخرة قبل

انتقالهم إليها ، واهتموا بالله وطاعته على قدر حاجتهم إليه ، وتزودوا للآخرة على قدر مقامهم فيها ، فعجل لهم سبحانه من نعيم الجنة وروحها أن آنسهم بنفسه ، وأقبل بقلوبهم إليه ، وجمعها على محبته . وشوّقهم إلى لقائه ، ونعّمهم بقربه ، وفرّغ قلوبهم مما ملأ قلوب غيرهم من محبة الدنيا ، والهمّ والحزن على فوتها ، والغم من فوت ذهابها . فاستلانوا مااستوعره المترفون ، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون . صحبوا الدنيا بأبدانهم ، والملأ الأعلى بأرواحهم .

أعوذُ بِكَ منك

ذليل أمام باب الذل واقف . اللهم يا رب لا تطردنى .

فقير أمام باب الفقر واقف . اللهم يا رب لا تصرفنى .

الذليل والفقير لله حقاً ، من يكون لمعنى الإعاذة مدركا ، ويعطى الإعاذة حق العبودية . والإدراك لمعنى الإعاذة يقتضى ، أنه لا ينجينا من قضائه إلا هو بقضائه ، وأنه لا يعيذنا من نفسه إلا هو بنفسه ، ولا يدفع عنا ما يقع منه إلا هو سبحانه الدافع ، وأن ما شاءه بنا لا يصرف إلا بمشيئته ، فيصرف السوء عن العباد ، ويهديهم لأحسن الأخلاق والأعمال .

(وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا رادّ لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم) يونس ١٠٧

فالنفع والضر بإذن الله ومشيئته ، وقضائه وقدره . ولا قدرة لأحد من الخلق على جلب منفعة أو دفع مضرة .

« واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء كتبه الله لك . ولو اجتمعوا على أن يضرُّوك بشىء لم يضرُّوك إلا بشىء كتبه الله عليك » .

فالأمر كله لله ، يعود إليه كما ابتدأ منه . والفضل كله من الله . فمنه سبحانه العطاء والبذل ، والجود والإحسان .

فالله ربنا ، هو الأول ، أوَّليَّته سبقت كل شىء ، وسبق فضله على كل الوسائل والأسباب ، بالإعداد والإمداد .

والله ربنا هو الآخر ، آخريّته باقية ودائمة بعد كل الأسباب ، فلا يزول ربنا ولا يموت .

والله ربنا هو الظاهر ، ظاهريّته علت وعظمت كل شيء . وفوقيّته أسنى وأجل الصفات .

والله ربنا هو الباطن ، باطنيّته قربت ودنت ، وأحاطت بكل ما فى الأكوان .

أسماء لله أربعة ، فاجعل القلب يشهد معانيها ، فلقد جمعت المعرفة بالله كما جمعت عبوديّة العباد له . فمن عبد ربه بها ، وشاهد ما حملته من المعانى والأسرار ، فهو الغنى بلا مال ، وهو القوى بلا رجال ، وهو العزيز بلا منصب ولا جاه . فكن صادقاً فى عبوديتك ، ولا تنخدع بأقوال أهل الخبل والشطحات ، ولتردد معى قول الله سبحانه : (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب) آل عمران ٨

روحانيات
للعارف الإمام ابن القيم

معرفة الله سبحانه نوعان : الأول : معرفة إقرار وهى التى اشترك فيها الناس : البر والفاجر ، والمطيع والعاصى . والثانى : معرفة توجب الحياء منه ، والمحبة له ، وتعلق القلب به ، والشوق إلى لقائه ، وخشيته ، والإنابة إليه ، والأنس به ، والفرار من الخلق إليه . وهذه هى المعرفة الخاصة الجارية على لسان القوم . وتفاوتهم فيها لا يحصيه إلا الذى عرفهم بنفسه ، وكشف لقلوبهم من معرفته ما أخفاه عن سواهم . وكل أشار إلى هذه المعرفة بحسب مقامه وما كشف له منها .

وقد قال أعرف الخلق به : « لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » .

وأخبر أنه سبحانه يفتح عليه يوم القيامة من محامده بما لا يحسنه الآن .

ولهذه المعرفة بابان واسعان :

الباب الأول : باب التفكر والتأمل فى آيات القرآن كلها ، والفهم الخاص عن الله ورسوله .

والباب الثانى : التفكر فى آياته المشهودة ، وتأمل حكمته فيها وقدرته ، ولطفه وإحسانه ، وعدله وقيامه بالقسط على خلقه . وجمع ذلك : الفقه فى معانى أسمائه الحسنى وجلالها وكمالها ، وتفرده بذلك ، وتعلقها بالخلق والأمر ، فيكون فقيهاً فى أوامره ونواهيه ، فقيهاً فى قضائه وقدره ، فقيهاً فى أسمائه وصفاته ، فقيهاً فى الحكم الدينى الشرعى والحكم الكونى القدرى ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

آفة العبد من نفسه

لو أراد الله سبحانه الخير بعبده منحه علماً يدرك به معانى الأسماء والصفات للذات العلية ، ومنحه عدلا يقوم به فى كل الأحوال .

ولو أراد الله سبحانه الشر بعبده ، تركه لدواعى الطبع والهوى والنفس ، وحينئذ لا ينبت القلب من الخير شيئاً !

ولو رحم الله عباده فبالتوفيق يؤيدهم ، وباللطف يعاملهم ، وبالفضل يخصهم ، وبالنصر يمدهم ، وببركات من السماء والأرض يفتح عليهم .

ولو عذب الله العباد فعذابه عدل وحكمة .

فكل أبواب الخير مفتوحة أمام العباد . فمن وجد الأبواب أمامه مغلقة ، والأشواك فى طريق سعادته ، فما أغلق الأبواب ووضع الأشواك إلا الأيادى التى انتكست قلوب أصحابها ، وفسدت فطرهم ، وباعوا الأخلاق والمعنويات بثمن بخس (ذلك بأن الله لم يَكُ مغيِّراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم) الأنفال ٥٣

فمن أصابه الحرمان فعلى القدَر لا يعتب ، وعلى مولاه لا يحتج . فآفة العبد من نفسه ، وهو الظالم لنفسه ، وعليه أن يستغفر الله من ذنبه (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) الأعراف ٢٣

* * *

فبأدب العبودية تأدب ، واستغفر الله من ذنبك ، فما أخطر الذنوب وما أضرها على الأفراد والأمم . فكم من مخلوقات قد أهلكت ، وكم من أمم قد

أبادت ، وكم من نعـم ومن بركات قـد أزالت ، وكم من نقم وكم من هزائم قد جلبت .

استغفر الله من ذنبك . فبالذنب أُهبط الأبوان من الملكوت الأعلى إلى دار البلاء والشقاء . وبالذنب طرد إبليس وحلت عليه اللعنة فكان من الهالكين . وبالذنب أغْرَق الطوفان أهل الأرض . وبالذنب أُهلكت عادٌ بالريح العقيم . وبالذنب هلكت ثمودُ بالصيحة . وبالذنب دُمِّرَت قوم لوط . وبالذنب هلكت شعيب . وبالذنب أغرق فرعون وقومه .

فنعوذ بالله من عـدم الاعتراف بالذنب . ونعوذ بالله من مخالفة الأمر وارتكاب النهى . ونعوذ بالله أن نكون من قوم أخبرنا الصادق عنهم بقوله « يخرج فى آخر الزمان قوم يختلون الدنيا بالدين ، ويلبسون للناس مسوك الضأن من اللين ، ألسنتهم أحلى من السكر ، وقلوبهم قلوب الذئاب . يقول الله عز وجل : أبى تغترون ، أم علىَّ تجترئون . فبى حلفت : لأبعثنّ على أولئك فتنة تدع الحليم منهم حيرانًا » .

نعوذ بالله أن نكون من قوم قال عنهم الحسن رضى الله عنه « إن الناس إذا أظهروا العلم ، وضيَّعوا العمل ، وتحابّوا بالألسن ، وتباغضوا بالقلوب ، وتقاطعوا بالأرحام ، لعنهم الله عند ذلك ، فأصمَّهم وأعمى أبصارهم » .

نعوذ بالله أن تكون ذنوبنا حجة على ربنا . وإن خير ما نضرع به إلى ربنا دعاء صادق من الأعماق ، أن يمنّ علينا بما منّ به على المذنبين من غفران ، وأن يحفظنا بالإسلام فى كافة أمورنا . وخير دعاء نردده :

(ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننّ من الخاسرين) .

روحانيات
للعارف الإمام ابن القيم

اقشعرت الأرض وأظلمت السماء . وظهر الفساد فى البر والبحر من ظلم الفجرة . وذهبت البركات وقلت الخيرات . وهزلت الوحوش وتكدرت الحياة من فسق الظلمة . وبكى ضوء النهار وظلمة الليل من الأعمال الخبيثة والأفعال الفظيعة . وشكا الكرام الكاتبون والمعقِّبات إلى ربهم من كثرة الفواحش وغلبة المنكرات والقبائح . وهذا والله منذر بسيل عذاب قد انعقد غمامه ، ومؤذن بليل بلاء قد ادْلَهَمَّ ظلامه . فاعزِلُوا عن طريق هذا السبيل بتوبة نصوح ، ما دامت التوبة ممكنة وبابها مفتوح . اشتر نفسك اليوم فإن السوق قائمة ، والثمن موجود ، والبضائع رخيصة . وسيأتى على تلك السوق والبضائع ، يوم لا تصل فيها إلى قليل ولا كثير ، ذلك يوم التَّغَابُن . يوم يعضُّ الظالم على يديه .

وقال :

تالله ما عدا عليك العدو ، إلا بعد أن تولَّى عنك الولىّ . فلا تظن أن الشيطان قد غلب ولكن الحافظ أعرض . احذر نفسك فما أصابك بلاء إلا منها . لا تهادن النفس . فوالله ما أكرمها من لم يهنها . ولا أعزها من لم يذلها . ولاجبرها من لم يكسرها . ولاأراحها من لم يتعبها . ولا أمَّنها من لم يخوفها . ولا فرّحها من لم يحزنها .

سبحان الله ، ظاهرك متجمل بلباس التقوى ، وباطنك باطية لخمر الهوى . كلما طيبت الثوب وفاحت رائحة المسك من تحته ، تباعد منك الصادقون ، وانحاز إليك الفاسقون .

ومن تصرف بحولى وقوتى ألنت له الحديد

بالذكر أمر الله العباد ، لينالوا من فيوضات عطائه وإحسانه . وبالشكر أمر الله العباد ، لينالوا المزيد من فضله ونعمه . لكن الكثير من العباد قد أغلقوا كل باب للخير باتباع الهوى والشهوات .

ولما كانت الرحمة أحب إلى الله سبحانه من العقوبة ، والعفو لديه أحب من الانتقام ، نادى العباد بندائه القدسى العلوى يبشرهم بجوده وكرمه وإحسانه فقال :

« عبدى متى جئتنى قبلتك ، فإن أتيتنى ليلا قبلتك ، وإن أتيتنى نهاراً قبلتك ، وإن تقرّبت منّى شبراً تقربت منك ذراعاً ، وإن تقربت منّى ذراعاً تقربت منك باعاً ، وإن مشيت إلىّ هرولتُ إليك ، ولو لقيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئاً ، أتيتك بقرابها مغفرة . ولو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك ، ومَن أعظم منّى جوداً وكرماً . عبادى يبارزوننى بالعظائم وأنا أكلؤهم على فُرشهم . إنى والجن والإنس فى نبإٍ عظيم . أخلق ويُعبدُ غيرى . وأرزق ويشكر سواى . خيرى إلى العباد نازل ، وشرهم إلىّ صاعد . أتحبّب إليهم بنعمى وأنا الغنى عنهم . ويتبغّضون إلىّ بالمعاصى وهم أفقر شىء إلىّ . ومن أقبل إلىّ تلقيته من بعيد . ومن أعرض عنّى ناديته من قريب . ومن ترك لأجلى أعطيته فوق المزيد ، ومن أراد رضاى أردت ما يريد . ومن تصرف بحولى وقوتى ألنت له الحديد . أهل ذكرى أهل مجالستى . وأهل شكرى أهل زيارتى . وأهل طاعتى أهل كرامتى . وأهل معصيتى لا أُقنّطهم من رحمتى . إن تابوا إلىّ فأنا حبيبهم ، فإنّى أحب التوابين

وأحب المتطهرين . وإن لم يتوبوا إلىّ فأنا طبيبهم . أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعايب . ومن آثرنى على سواى آثرته على سواه . الحسنة عندى بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة . والسيئة عندى بواحدة ، فإن ندم عليها واستغفرنى غفرتها له . أشكر اليسير من العمل ، وأغفر الكثير من الزلل . رحمتى سبقت غضبى ، وحلمى سبق مؤاخذتى ، وعفوى سبق عقوبتى ، أنا أرحم بعبادى من الوالدة بولدها » .

روحانيات
للعارف الإمام ابن القيم

فالله سبحانه أخبر ، أنه يعامل الناس بكسبهم ، ويجازيهم بأعمالهم · ولا يخاف المحسن لديه ظلماً ولا هضما ، ولا يخاف بخساً ولا رهقاً . ولا يضيع عمل محسن أبداً . ولا يضيع على العبد مثقال ذرة ولا يظلمها · وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيما . وإن كان مثقال حبة خردل جازاه بها ولا يضيعها عليه . وأنه يجزى بالسيئة مثلها ، ويحبطها بالتوبة والندم والاستغفار والحسنات والمصائب . ويجزى بالحسنة عشرة أمثالها ، ويضاعفها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة . وهو الذى أصلح الفاسدين ، وتاب على المذنبين ، وهدى الضالين ، وأنقذ الهالكين ، وعلّم الجاهلين ، وبصّر المتحيرين ، وذكّر الغافلين ، وآوى الشاردين . وإذا أوقع عقاباً أوقعه بعد شدة التمرد والعتو عليه ، ودعوة العبد إلى الرجوع إليه ، والإقرار بربوبيته وحضه مرة بعد مرة ، حتى إذا أيس من استجابته ، والإقرار بربوبيته ووحدانيته ، أخذه ببعض كفره وعتوه وتمرده ، بحيث يعذر العبد من نفسه ، ويعترف بأنه سبحانه لم يظلمه ، وأنه هو الظالم لنفسه ، كما قال تعالى عن أهل النار (فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير) ·

وقال عمن أهلكهم فى الدنيا إنهم لما رأوا آياته وأحسوا بعذابه قالوا :(ياويلنا إنا كنا ظالمين . فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين) .

وقال أصحاب الجنة[1] لما رأوها (سبحان ربنا إنا كنا ظالمين) .

---

(١) أى أصحاب الحديقة ، وهى المذكورة فى سورة القلم آية ٢٩ - اه مصححه .

وقال :

إذا أقبل الناس على الدنيا ، فأقبل أنت على الله . وإذا رضى الناس بالدنيا ، فارض أنت بالله . وإذا اتخذوا فيها الأحباب فليكن حبيبك الله . وإذا تقربوا إلى الرؤساء يطلبون العزة والرفعة ، فتقرب أنت إلى الله تنل مالم ينالوه .

وقال :

كن فى الدنيا كالنحلة ، إن أكلت لم تأكل إلا طيباً . وإن أطعمت لم تطعم إلا طيباً . وإن وقعت على شىء لم يتأثر بوقوعها .

إياك والمعاصى

إذا رأيت المعاصى قد عمّت وسادت ، ورأيت الذنوب انتشرت وراجت ، فأنذر القوم بعذاب واقع ، ليس له من دافع . ولا تبشّر القوم برضاً أو نصر أو رحمة . فمن المعلوم أن أهل الطاعات لهم البشرى بالجنة ، وأهل المعاصى والذنوب لهم الإنذار بالنار .

عن معاذ رضى الله عنه قال : أوصانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « لا تشرك بالله شيئاً وإن قتلت أو حرقت ، ولا تَعُقّنَّ والديك وإن أمرك أن تخرج من مالك وأهلك ، ولا تتركنّ صلاة مكتوبة متعمداً ، فإن مَن ترك صلاة مكتوبة متعمداً ، فقد برئت منه ذمة الله ، ولا تشربنّ خمراً ، فإنه رأس كل فاحشة ، وإيّاك والمعصية ، فإن المعصية تُحِلّ سخط الله » .

ومن حديث أبى رافع ، وقد ذكره الإمام أحمد قال : « مرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبقيع ، فقال : أُفٍّ لك . أُفٍّ لك . فظننت أنه يريدنى . قال : لا . ولكن هذا قبر فلان بعثته ساعياً إلى آل فلان فغَلَّ نَمِرَةً ـ خان وسرق بردة من صوف ـ فَدُرِّع الآن مثلها من نار » .

ومن حديث أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مررتُ ليلةَ أُسْرِيَ بى على قومٍ تُقْرَض شفاههم بمقاريض من نار ، فقلت : من هؤلاء ؟ قالوا خطباء من أمتك من أهل الدنيا ، كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم أفلا يعقلون ؟ » .

ومن حديث أبى ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنى أرى مالا ترون ، وأسمع مالا تسمعون . أطَّتِ السماء وَحُقَّ لها أن تئط . ما فيها

موضع أربع أصابع إلا وعليه ملك يسبح الله ساجداً . لو تعلمون ما أعلم ، لضحكتم قليلا ، ولبكيتم كثيراً ، وما تلذذتم بالنساء على الفُرُشِ ، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى » .

وما أكثر النصوص الواردة عن خطر المعاصى . فإن رأيت بأن دين الله قد تُرك ، ورأيت أن المحارم ترتكب ، وأن الحرمات تنتهك ، فخالف من يبشر القوم بالرجاء والأمل ، معتمداً على رحمة الله وعفوه ومغفرته ، ومتعلقاً بالنصوص الدالة على ذلك . فلقد ذُكر ، أن سائلا سأل الحسن رضى الله عنه وقال : كيف نصنع بمجالسة أقوام يخوّفوننا حتى تكاد قلوبنا تنقطع ؟ فقال للسائل : والله لأن تصحب أقواماً يخوفونك حتى تدرك أمناً ، خير لك من أن تصحب أقواماً يأمنونك حتى تلحقك المخاوف !.

فمن كان حسن الظن فى الله ، ومعتمداً على الرجاء ، ويرجو رحمة الله وعفوه ومغفرته ، تحتم عليه أن يكون جادًّا فى سيره وفى عمله ، وألا يفارق طريق السادة العارفين . فلقد كانوا إلى الخيرات يتسابقون ، ومن ربهم يخافون ، ومن خشيته مشفقون .

قال تعالى : (إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون . والذين هم بآيات ربهم يؤمنون . والذين هم بربهم لا يشركون. والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون . أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون) .

ولمّا سألت أمُّ المؤمنين عائشةُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية وقالت : أهم الذين يشربون الخمر ويزنون ويسرقون ؟ فقال : « لا يا ابنة الصديق ، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون ويخافون ألا يتقبل منهم ! . أولئك يسارعون فى الخيرات » الترمذى

فمن كان صادقاً ، وعلى الرجاء يعتمد ، ويرجو الرحمة والعفو والمغفرة ، فَلْيَخْشَ ربه، ولا يرتكب ذنباً، ولا يقترف معصية ، فالذنوب والمعاصى توجب البلاء والشقاء .

قال تعالى : (وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) .

(ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون) .

ويقول عمر أمير المؤمنين : « توشك القُرَى أن تخرَّبَ وهى عامرة . قيل : بماذا؟ قال : إذا علا فجارها على خيارها ، وساد القبيلة منافقوها » .

فبأدب العبودية تأدب ، وكفّ عما يضرك ويسخط مولاك . وبالتقوى وبالطاعات ادخل مع الداخلين إلى ديوان الحصانة الربّانى ، فمن دخله كان من الآمنين .

روحانيات

للعارف الامام ابن القيم

قلة التوفيق ، وفساد الرأى ، وخفاء الحق ، وفساد القلب ، وخمول الذكر ، وإضاعة الوقت ، ونفرة الخلق ، والوحشة بين العبد وربه ، ومنع إجابة الدعاء ، وقسوة القلب ، ومحق البركة فى الرزق والعمر ، وحرمان العلم ، ولباس الذل ، وإهانة العدو ، وضيق الصدر ، والابتلاء بقرناء السوء الذين يفسدون القلب ويضيعون الوقت ، وطول الهمّ والغم ، وضنك المعيشة ، وكسف البال ، تتولد عن المعصية والغفلة عن ذكر الله ، كما يتولد الزرع عن الماء ، والإحراق عن النار . وأضداد هذه تتولد عن الطاعة .

خذ الحكمة من الأضداد

لا تتميز الأشياء إلا بأضدادها .

فالله ربنا إله واحد . خالق الأرض والسماء . وخالق الليل والنهار . وخالق النور والظلام . وخالق الخير والشر . وخالق الشمس والقمر . وخالق الرياح والمطر . وخالق الماء والنار . وخالق الجن والإنس . وخالق الذكر والأنثى . وخالق الملائكة وإبليس .

فتبارك الله ربنا خالق الأضداد .

خالق إبليس ، وذات إبليس أخبث ذات فى المخلوقات . فحلّت عليه اللعنة والطرد والغضب .

وخالق جبريل عليه السلام ، وذات جبريل أشرف ذات فى الملائكة ، فهو الخير وللخير خلق .

تبارك الله ربنا خالق الأضداد . فلولا ما تحمله الأضداد من حكم وأسرار ما ظهر التدبير وتصريف الأمور ، وما ظهرت آثار أسمائه التى تضمنت التوبة والمغفرة ، والحلم والعفو ، والفضل والعطاء والإحسان ، وما ظهرت آثار أسمائه سبحانه التى تضمنت القهر والغضب ، والانتقام والعقاب ، والحساب والإذلال ، والمنع والحرمان .

تبارك الله ربنا خالق الأضداد .

فلولا ما تحمله الأضداد من حكم وأسرار ، ما استطاعت الرسل الاهتداء إلى خير الطبائع ، ولما تحيرت الملائكة وقالت : (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) .

فأجابهم خالق الأضداد سبحانه : (إنى أعلم مالا تعلمون)

فخلق الأضداد فى سائر الموجودات من كمال قدرته ، ووضع كل نوعيّة فى الموضع اللائق بها من كمال حكمته ، وتسليط بعضها على بعض ، وإيجاد الضد والشريك لكل مخلوق من تمام ملكه . فضد البشر إبليس . وضد إبليس الملائكة . وضد الليل النهار . وضد النهار الليل . وضد الشتاء الصيف . وضد الصيف الشتاء . وضد الماء النار .

فلا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير . لا يخرج عن قدرته ولا يغيب عن علمه كل موجود . فهو القادر بنفسه على كل شىء ، والغنى بذاته عن كل شىء . لا سوء فى أسمائه . ولا نقص فى صفاته . ولا قبح فى أفعاله .

انفرد بشئون كل مخلوق من غير شريك . لا تفتقر المخلوقات إلى غيره . فهو القاهر القادر القوى العزيز . كل مخلوق مقهور له مربوب .

هو الرحمن الرحيم . وسعت رحمته كل شىء .

لا يبخس العباد حقوقهم . ولا يعاقبهم إلا بالذنوب والمعاصى .

(يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غيرُ الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون) فاطر ٣

(يا أيها الناس إنّ وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور) فاطر ٥

روحانيات

للعارف الامام ابن القيم

قال الله تعالى : (وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيلُ المجرمين) .

وقال : (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نولّه ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً) .

والله تعالى قد بين فى كتابه سبيل المؤمنين مفصلة، وسبيل المجرمين مفصلة، وعاقبة هؤلاء مفصلة ، وعاقبة هؤلاء مفصلة ، وأعمال هؤلاء ، وأعمال هؤلاء ، وأولياء هؤلاء ، وأولياء هؤلاء . وخذلانه لهؤلاء ، وتوفيقه لهؤلاء ، والأسباب التى وفق بها هؤلاء ، والأسباب التى خذل بها هؤلاء . وجلى سبحانه الأمرين فى كتابه وكشفهما وأوضحهما وبينهما غاية البيان ، حتى شاهدتهما البصائر كمشاهدة الأبصار للضياء والظلام . فالعالمون بالله وكتابه ودينه ، عرفوا سبيل المؤمنين معرفة تفصيلية ، وسبيل المجرمين معرفة تفصيلية . فاستبانت لهم السبيلان كما يستبين للسالك الطريق الموصل إلى مقصوده ، والطريق الموصل إلى الهلكة .

فهؤلاء أعلم الخلق وأنفعهم للناس وأنصحهم لهم . وهم الأدلّاء الهداة . وبذلك برز الصحابة على جميع من أتى بعدهم إلى يوم القيامة . فإنهم نشأوا فى سبيل الضلال والكفر والشرك والسبل الموصلة إلى الهلاك وعرفوها مفصلة ، ثم جاءهم الرسول فأخرجهم من تلك الظلمات إلى سبيل الهدى وصراط الله المستقيم . فخرجوا من الظلمة الشديدة إلى النور التام ، ومن الشرك إلى التوحيد ، ومن الجهل إلى العلم ، ومن الغى إلى الرشاد ، ومن الظلم إلى العدل ، ومن الحيرة والعمى إلى الهدى والبصائر . فعرفوا مقدار ما نالوه وظفروا به ومقدار ما كانوا فيه . فإن الضد يظهر حسنه الضد . وإنما تتبين الأشياء بأضدادها .

فازدادوا رغبة ومحبة فيما انتقلوا إليه ، ونُفْرَةً وبغضاً لما انتقلوا عنه . وكانوا أحب الناس فى التوحيد والإيمان والإسلام ، وأبغض الناس فى ضده .

* * *

وقال :

كم من عطشان يكون فى اللجّة .

سبق العلم بنبوة موسى ، وإيمان آسية ، فسيق تابوته إلى بيتها .

طلب فرعون موسى فذبح الكثير من الأولاد ، ولسان القدر يقول : لا يُرَبَّى إلا فى حجرك .

كل شيء حلو، كل شيء جميل

شطحة من مخبول وهذيان من مفتون (إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) الحج ٤٦

لا تُلق بالك إلى أهل الخبل والشطحات الذين يردّدُون: « كل شيء حلو، كل شيء جميل » ولا تلق بالك إلى ماينشدونه من الأنغام الضالة التى بها أوحت الشياطين إليهم . فهم ينشدون :

وإذا رأيت الكائنات بعينهم   فجميع ما يحوى الوجود مليح

احذر أن تضل وأن تفتن بهذه الأنغام الضالة التى تهدف إلى استباحة المنكرات والآثام ، وليس بلازم أن تقوّم وتغير فهى حلوة وجميلة . وكل المعاصى فى نظرهم لا مانع من إتيانها فهى حلوة وجميلة . وكل الحدود التى أمرنا الله بإقامتها من الخير للبشرية أن تعطّل !

فاحذر كل جمال وكل حلو قد هتفوا به ودَعَوْا إليه ، وأقبل على كل جمال دعانا إليه الدين وأحبه رب العالمين .

وما أكثر الجمال فى الدين وكلّه جمال .

فأقبل على جمال العبادة . وأقبل على جمال الطاعة . وأقبل على جمال القول والإخلاص والصدق . وأقبل على كل جمال فيه كما يحبه الله . وأبغض كل قبيح وعفن يمقته الله . فهذا مقام العارفين .

روحانيات
للعارف الإمام ابن القيم

لله سبحانه على عبده أمر أمره به ، وقضاء يقضيه عليه ، ونعمة ينعم بها عليه . والقضاء نوعان : إما مصائب وإما معائب . وله عليه عبودية فى هذه المراتب كلها . فأحب الخلق إلى الله من عرف عبودية هذه المراتب ووفّاها حقها ، فهذا أقرب الخلق إليه . وأبعدهم منه من جهل عبودية هذه المراتب فعطّلها علماً وعملا . وعبوديته فى الأمر : امتثاله إخلاصاً واقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم . وعبوديته فى النهى : اجتنابه خوفاً منه وإجلالا ومحبة . وعبوديته فى قضاء المصائب : الصبر عليها ثم ارضا بها ثم الشكر عليها . وعبوديته فى قضاء المعايب : المبادرة إلى التوبة منها والتنصل والاعتذار والانكسار ، عالمًا بأنه لا يرفعها عنه إلا هو، ولا يقيه شرها سواه ، وأنها إن استمرت أبعدته من قربه ، وطردته من بابه ، فيراها من الضر الذى لا يكشفه غيره ، حتى إنه ليراها أعظم من ضر البدن . فهو عائذ برضاه من سخطه ، وبعفوه من عقوبته ، وبه منه ، مستجير وملتجىء منه إليه ، متضرع ذليل مسكين . وأما عبودية النعم : فمعرفتها والاعتراف بها أولا ، ثم العياذ به أن يقع فى قلبه نسبتها وإضافتها إلى سواه . وإن كان سبباً من الأسباب فهو مسببة ومقيمه . فالنعمة منه وحده بكل وجه واعتبار .

ومن لطائف التعبد بالنعم : أن يستكثر قليلها عليه ، ويستقل كثير شكره عليها . وإنها لله فى الحقيقة لا للعبد . فلا تزيده النعم إلا انكساراً وذلا وتواضعاً ومحبة للمنعم . وكلما جدّ له نعمة أحدث لها عبودية وذلا وخضوعاً . وكلما أحدث له قبضاً أحدث له رضاً، وكلما أحدث ذنباً أحدث له توبة وانكساراً واعتذاراً .

إنكار المنكر تحتمه الشريعة

طالبتنا الشريعة وحتمت علينا محاربة المنكر وإنكاره ، لأن ترك الإنكار يوجب إنزال لعنة الله ، وإنزال غضبه ، وإنزال عقابه .

قال نبينا صلى الله عليه وسلم : « إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول له : يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده . فلما فعلوا ذلك ، ضرب الله قلوب بعضهم ببعض . ثم قال : (لُعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهَون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون) » المائدة ٧٨ ، ٧٩

ثم قال : « كلا والله لتأمرنّ بالمعروف ولَتَنهوُنّ عن المنكر . ولتأخذُنّ على يد الظالم ولتأْطِرُنّه على الحق أطراً ، أو تقصُرُنّه على الحق قصراً » الترمذى

ثم قال : «والذى نفسى بيده لتأمرنّ بالمعروف ، ولتنهونّ عن المنكر ، أو ليوشكنّ الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ، ثم تدعونه فلا يستجيب لكم» الترمذى

فانكر المنكر إن وقع . فعدم الإنكار موجب لموت القلوب وتسليط الأشرار ، ومانع من دعاء الأخيار .

وقد ورد : أن الله أمر ملكا أن يخسف قرية من القرى ، فقال الملك : يا رب أنت أعلم بشئون عبادك ، إن فيها فلاناً العابد الذى يعبدك ويوحدك ، فقال الله عز وجل : ابدأ به أولا واقلبها عليه وعليهم فإنه لم يتمعّر وجهه ساعة وقوع المعصية ! .

وفى رواية لعلى كرم الله وجهه : أن رسول الله صـلى الله عليه وسلم قال : « كيف بكم إذا فسق فتيانـكم ، وطغى نساؤكم ؟ قالوا يا رسول الله وإن ذلك لـكائن ؟ قال نعم وأشد . كيف بكم إذا لم تأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر ؟ قالوا : يا رسول الله وإن ذلك لـكائن ؟ قال : نعم وأشد . كيف بكم إذا رأيتم المعروف منـكراً والمنـكر معروفاً » رزين

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : أتدرون من ميت القلب الذى قيل فيه :

ليس من مات فاستراح بميت ... إنما الميت ميت الأحياء

قالوا : من هذا ؟ قال : الذى لا يعرف معروفاً ولا ينـكر منـكراً !

أمام ما ذكرناه من نصوص يرى أهل الخبـل والشطحات بأن العارف لا يلتزم بواجب الأمر ولا الإنـكار ، وذلك لاستبصاره بسر الله فى القدر !

أليس من الحق أن نقول : إن أهل الخبل والشطحات يحرضون بأسلوب ملعون الناس على ارتـكاب المنـكرات بلاحيـاء ولاخجل ! وبأخبث الدعوات يدعون الناس إلى الانطلاق فى كل وادٍ من أودية الفساد ، وإلى الانغماس فى كل ردغة من ردغات البغى والعربدة ، وكل لون من ألوان الملذات والشهوات !

أيها الضالون المـكذبون ، يا أهل الخبل والشطحات ، يامن تنعقون دائماً بدعوة الشيطان . أهذا هو الدين عندكم ؟ إنـكم عطلتم بما تدينون رسالة الرسول ، وخالفتم صريح الشرع ، فبهذا كنتم من الواصلين كما زعمتم ، وآمن بوصولـكم كل تابع لـكم ! الحق نقوله : إنـكم قد وصلتم إلى الشيطان وإلى سقر ! .

روحانيات

للعارف الإمام ابن القيم

الوصول إلى المطلوب: موقوف على هجر العوائد، وقطع العوائق .

فالعوائد : السكون إلى الدّعة والراحة ، وما ألفه الناس واعتادوه من الرسوم والأوضاع التى جعلوها بمنزلة الشرع المتبع ، بل هى عندهم أعظم من الشرع ! فإنهم ينكرون على من خرج عنها وخالفها مالا ينكرون على من خالف صريح الشرع ، وربما كفّروه أو بدّعوه وضلّلوه ، أو هجروه وعاقبوه لمخالفة تلك الرسوم . وأماتوا لها السنن ونصبوها أنداداً للرسول يوالون عليها ويعادون . فالمعروف عندهم ما وافقها ، والمنكر ما خالفها . وهذه الأوضاع والرسوم قد استولت على طوائف بنى آدم ، من الملوك والولاة والفقهاء ، والصوفية والفقراء والعامة ، فرُبِّى فيها الصغير ، ونشأ عليها الكبير ، واتخذت سنناً بل هى أعظم عند أصحابها من السنن . الواقف معها محبوس ، والمتقيد بها منقطع . عمّ بها المصاب ، وهجر لأجلها السنة والكتاب . من استنصر بها فهو عند الله مخذول . ومن اقتدى بها دون كتاب الله وسنة رسوله فهو عند الله غير مقبول . وهذه أعظم الحجب والموانع بين العبد وبين النفوذ إلى الله ورسوله .

وأما العوائق : فهى أنواع المخالفات ظاهرها وباطنها . فإنها تعوق القلب عن سيره إلى الله ، وتقطع عليه طريقه . وهى ثلاثة أمور : شرك ، وبدعة ،

ومعصية . فيزول عائق الشرك بتجريد التوحيد ، وعائق البدعة بتحقيق السنة ، وعائق المعصية بتصحيح التوبة .

* * *

وقال :

دخل الناس النار من ثلاثة أبواب :

باب شبهة : أورثت شكاً فى دين الله .

وباب شهوة : أورثت تقديم الهوى على طاعته ومرضاته .

وباب غضب : أورثت العدوان على خلقه .

العـــابد المتحقق

من هو ؟؟

من كان الإسلام له نسباً . ومن كانت السنة له مذهباً ، وكانت التقوى له لباساً . لا يصرفه عن أوامر الإسلام صارف ، فيدور مع الأوامر فى كل ماتدور به . فلا هو بطريقة يتقيد ، ولابقَيْدٍ يتعبَّد . يريد ربه فى كل الأحوال بإرادته . فلا لمراد نفسه ولا لهوى قلبه يخضع . ولا يُقبل إلا على مولاه ، ولا يشتغل إلا بذكر نعمه وآلائه . وعن كل خبيث وأذى يرتفع بهمته ، كما يرتفع الطائر فى جو السماء . فلا يرى ببصيرته من الشك قتراً ، ولا من الريب غيماً . فإن نال عطاء من ربه وأفاض عليه بشرف المقامات ، ستر ذلك عن الخلق وعاش بينهم من غير جاه ولا منزلة . وكافيه أنه إن رآه الخلق ، فعليه يُقبلون ، ولشأنه يعظمون ، وبه يأنسون ويستريحون . أدرك بأنى فى عجز وتقصير . فالمقام لمثلى لا يستطيع فيه المزيد والتعبير . غير أنى أقول قول أبى فراس ، فهو للمقام مناسب :

فليتك تحلو والحيـاة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذى بينى وبينك عامر ... وبينى وبين العالمين خراب

إذا صحَّ منكَ الودّ فالـكلُّ هيِّنٌ

وكلُّ الذى فوقَ الترابِ تراب

روحانيات

للعارف الإمام ابن القيم

أيها الأعزل : احذر فراسة المتقى . فإنه يرى عورة عملك من وراء ستر « اتقوا فراسة المؤمن » .

وقال :

سبحان الله . فى النفس كبر إبليس . وحسد قابيل . وعتو عاد . وطغيان ثمود . وجرأة نمرود . واستطالة فرعون . وبغى قارون . وقحة هامان . وحيل أصحاب السبت . وتمرد الوليد . وجهل أبى جهل .

وفيها من أخلاق البهائم : حرص الغراب . وشره الكلب . ورعونة الطاووس . ودناءة الجعل . وعقوق الضب . وحقد الجمل . ووثوب الفهد . وصولة الأسد . وفسق الفأرة . وخبث الحية . وعبث القرد . وجمع النملة . ومكر الثعلب . وخفة الفراش . ونوم الضبع .

غير أن الرياضة والمجاهدة تذهب ذلك .

فمن استرسل مع طبعه ، فهو من هذا الجند ، ولا تصلح سلعته لعقد : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم) فما اشترى إلا سلعة هذبها الإيمان . فخرجت من طبعها إلى بلد سكانه (التائبون العابدون) .

تأدب بأدب العبودية

لا تشرك بالله . ولا تكن فى إيمانك وإقرارك كالمشركين فى إيمانهم وإقرارهم . إذ قالوا بأن الله رب كل شىء وخالقه ورازقه . ولكنهم عبدوا غيره ، واتخذوا له الأنداد وسوّوها به فى المحبة والطاعة والتعظيم .

يقول ابن عباس رضى الله عنهما فى الآية الكريمة : (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) : تسألهم من خلقهم ومن خلق السموات الأرض ؟ فيقولون : الله . وفى رواية : فيقرُّون أن الله خالقهم . فذلك إيمانهم وهم يعبدون غيره ، فذلك شركهم .

ويقول الإمام ابن القيم عن الشرك فى العبادة :

يصدر ممن يعتقد : أنه لا إله إلا الله ، وأنه لا يضر ولا ينفع ، ولا يعطى ولا يمنع إلا الله ، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه . ولكن لا يخلص لله فى معاملته وعبوديته . بل يعمل لحفظ نفسه تارة ، وطلب الدنيا تارة ، وطلب الرفعة والمنزلة والجاه عند الخلق تارة . فله من عمله وسعيه نصيب ، ولنفسه وحظه وهواه نصيب ، وللشيطان نصيب ، وللخلق نصيب . هذا حال أكثر الناس . وهذا هو الشرك الذى قال فيه النبى صلى الله عليه وسلم ، فيما رواه ابن حبّان فى صحيحه : « الشرك فى هذه الأمة أخفى من دبيب النمل . قيل : وكيف ننجوا منه يا رسول الله ؟ قال : قل : اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم ، وأستغفرك لما لا أعلم » .

فالرياء كله شرك . قال تعالى : (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد ، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة

ربه أحداً) . أى كما أنه إله وَاحد لا إله سواه . فكذلك ينبغى : أن تكون العبادة له وَحده . فكما تفرّد بالإلهية يجب أن ينفرد بالعبودية . فالعمل الصالح هو الخالى من الرياء .

وكان من دعاء عمر رضى الله عنه : « اللهم اجعل عملى كله صالحاً ، واجعله لوجهك خالصاً ، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً » .

* * *

وقال :

ويتبع هذا الشرك : الشرك به سبحانه فى الأقوال والأفعال والإرادات والنيات .

فالشرك فى الأفعال : كالسجود لغيره ، والطواف بغير بيته ، وتقبيل الأحجار غير الحجر الأسود الذى هو يمين الله فى الأرض ، أو تقبيل القبور واستلامها والسجود لها . وَقد لعن النبى ﷺ من اتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد يصلى لله فيها . فكيف بمن اتخذ القبور أوثاناً يعبدها من دون الله ؟ !

وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » .

وفى الصحيح قال : « إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء ، والذين يتخذون القبور مساجد » .

وفى الصحيح أيضاً : « إن مَن كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإنى أنهاكم عن ذلك » .

وقال : « اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » .

وقال : « إن من كان قبلكم كان إذا مات فيهم الرجل الصالح بَنَوْا على قبره مسجداً ، وصوّروا فيه تلك الصورة . أُولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة » .

وقد حَمى النبي صلى الله عليه وسلم جانب التوحيد أعظم حماية ، حتى نهى عن صلاة التطوع لله سبحانه وتعالى عند طلوع الشمس وعند غروبها ، لئلا يكون ذريعة إلى التشبه بعبّاد الشمس ، الذين يسجدون لها فى هاتين الحالتين .

* * *

وقال :

ومن الشرك به سبحانه : الشرك به فى اللفظ كالحلف بغيره . كما رواه أحمد وأبو داود عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من حلف بغير الله فقد أشرك » .

* * *

وقال :

وأما الشرك فى الإرادات والنيات ، فذلك البحر الذى لا ساحل له ، وقد قلّ من ينجو منه . فمن أراد بعمله غير وجه الله ، ونوى شيئاً غير التقرب إليه ، وطلب الجزاء منه ، فقد أشرك فى نيته وإرادته .

والإخلاص : أن يخلص لله فى أفعاله وأقواله وإرادته ونيته . وهذه هى الحنيفية ملة إبراهيم عليه السلام التى أمر الله بها عباده كلهم . ولا يقبل من أحد غيرها ، وهى حقيقة الإسلام . كما قال تعالى : (ومن يَبْتَغِ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين) .

ومن رغب عن ملة إبراهيم فهو من أسفه السفهاء .

قال تعالى : (ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سَفِهَ نفسه) .

* * *

تأدب بأدب العبودية . واعبد ربك بالحب وبالخوف وبالرجاء كما عبده الرسل والصالحون .

قال تعالى : (إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذُكِّروا بها خرُّوا سُجداً ، وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون . تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً) .

(إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين) .

اعبد ربك ولا تُعرض وأنت فى عبادتك أن تطلب الجنة وأن تستعيذ من النار . فإن لك فى إبراهيم عليه السلام القدوة الحسنة .

قال تعالى : (والذى أطمعُ أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين . ربّ هب لى حكماً وألحقنى بالصالحين . واجعلنى من ورثة جنة النعيم . واغفر لأبى إنه كان من الضالين . ولا تُخزنى يوم يبعثون . يوم لا ينفع مال ولا بنون . إلا من أتى الله بقلب سليم) .

وقدوتك الطيبة فى عبادة الله تلك التوجيهات التى نراها فى كثير من الأحاديث بطلب الجنة والاستعاذة من النار .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اطلبوا الجنة جهدكم ، واهربوا من النار جهدكم ، فإن الجنة لا ينام طالبها ، وإن النار لا ينام هاربها . وإن الآخرة اليوم محفوفة بالمكاره . وإن الدنيا محفوفة باللذات والشهوات ، فلا تلهينكم عن الآخرة » .

وقال : « ألا مشمر للجنة ، فإنها ورب الكعبة ، نور يتلألأ ، وريحانة تهتز ، وزوجة حسناء ، وفاكهة نضيجة ، وقصر مشيد ، ونهر مطّرِد ،

فقال الصحابة : يا رسول الله : نحن المشمرون لها . فقال : قولوا إن شاء الله » .

وإن لك فى امرأة فرعون خير قدوة ، فقد طلبت من الله الجنة .

قال تعالى: (وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لى عندك بيتاً فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين) ١٠ التحريم

وإن لك فى السادة العارفين وفى خواص العباد خير قدوة .

قال تعالى : (والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً . إنها ساءت مستقراً ومقاماً) .

(الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار) .

فلا تتأثر بأحوال أهل الخبل والشطحات ، ولا تجذبك أقوال الصوفية وأذكارهم فى صورها وحركاتها البهلوانية . واذكر ربك فى كل وقت وعند كل عمل . وكفانا جزاء قول الله سبحانه : (فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون) .

(والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيما) .

اذكر ربك بما شرع ، وعلمه لنا سيد الأنبياء . واضرع إلى الله بخضوع وذل وابتهال ، وقل عقب صلاتك : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير . ولا حول ولا قوة إلا بالله . لا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه ، له النعمة وله الفضل، وله الثناء الحسن . لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون » .

واستغفر الله من ذنبك وقل : « اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى ، وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت . أعوذ بك من شر ما صنعت . أبوء لك بنعمتك علىّ وأبوء بذنبى فاغفر لى إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » .

وعند قيامك تصلى من الليل اذكر الله وقل : « اللهم لك الحمد . أنت نور السموات والأرض ومن فيهن . ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن . ولك الحمد أنت الحق . ووعدك الحق . ولقاؤك حق . والجنة حق . والنار حق . والنبيون حق . والساعة حق . ومحمد حق . اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ،وإليك حاكمت ، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت . أنت إلهى لا إله إلا أنت » .

فاستقم كما أُمرت . واعبد ربك بالوارد المشروع ، وبروح العبودية الصادقة ، لتتفتح لك أبواب السماء .

قال تعالى : (فاستقم كما أُمرت ومن تاب معك ولا تطغَوْا إنه بما تعملون بصير) هود ١١٢ .

(إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون . أُولئك أصحابُ الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون) الأحقاف ١١٣

* * *

تأدب بأدب العبودية : وهلمّ معى قبل أن يطويك التيه فى كهوف الظلام . وقبل أن تجتاحك العواصف والتيارات الملحدة الجاحدة . هلمّ معى نسعى فى الوجود ، وندعوا بدعوة الإيمان والحق والتوحيد ، لِنُحَصِّن النفوس

من المزاعم والمعتقدات التي يدّعيها أهل الخبل والشطحات ! فالواصلون من العباد كما يدّعون : هم أهل فناء لا أهل بقاء .

فهلمّ معي لنتعلم من القرآن الكريم الرد الذي يُدحض هذه المزاعم .

قال تعالى : (ما زاغ البصر وما طغى) .

لم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم من أهل الفناء وهو في أسمى وأجل المقامات التي وصل فيها إلى سدرة المنتهى !

وقال تعالى : (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر اللهَ شيئاً وسيجزى الله الشاكرين) .

لم يكن الصدّيق رضى الله عنه ، وقت فجيعة المسلمين بوفاة نبي الإسلام من أهل الفناء !

ولقد تغالى أهل الخبل والشطحات وقالوا : إن الفناء اتّحاد تام بالله ، وحلول الذات العلية المقدسة في الطبيعة الإنسانية .

إنهم في دعواهم : ما قَدَروا الله حق قدْره ، وما عظموه حق عظمته ، وما أفردوه بما انفرد به دون خلقه ، وما صانوه عن الأماكن التي يستحى المخلوق من ذكرها ، ويأنف من الوجود فيها . إنهم أحلُّوه في جميع المخلوقات ، وجعلوه عين هذا الوجود .

تدبر وتابع ما أُدونه أمامك من المزاعم والمعتقدات ، والتي فاقت ما كانت عليه الجاهليّة من إسفاف وثنى وشرك جاحد بالله ! !

يزعم كاهن صوفى: بأن الله هو عين خلقه. وأن الكون بكل ما فيه عين الله وماهيته . وأنه لا وجود للرب غير وجوده ، ولا كيان لذاته غير كيانه .

فمن تائية ابن الفارض الملقب بسلطان العاشقين يقول :

تجلّتْ فى تجلّيها الوجودَ لناظرى ... ففى كلِّ مرئىٍّ أراها برؤية

وأشهدتُ غيبى إذ بدت فوجدتنى ... هنالك إيّاها بجلوةِ خلوتى

ففى الصّحو بعد المحو لم يكُ غيرها

وذاتى بذاتى ، إذ تجلّت تجلّتِ

ثم يتمادى فى إفكه ويزعم بأن كل شىء فى الكون بيده . وأن الوجود ما هو إلا قطرة من فيض وجوده . وأن كل إرادة فى الوجود إنما هى طوع هواه . فيقول :

ولا فلكٌ إلا ومن نور باطنى ... به فلكٌ يهدى الهدى بمشيئتى

ولا قطرٌ إلا حلٌّ من فيض ظاهرى

به قطرةٌ عنها السحائبُ سحّتِ

ولولاى لم يوجد وجودٌ ولم يكن

شهودٌ ولم تعهد عهودٌ بذمةِ

فلا حىٌّ إلا مِنْ حياتى حياتهُ

وطوعَ مُرادى كل نفسٍ مريدةِ

* * *

ثم يزعم فيرى : أن كل وصف لله ، إنما هو الموصوف به حقيقة . وأنه عين الله . وأن الله إذا دعى أجاب هو . وأنه اسم الله ومسمّاه ، فيقول :

فوَصْفِىَ إذ لم تدع باثنين وصفها

وهيئتها إذ واحد نحن هيئتى

فإن دَعَيْتَ كنتُ المجيبُ وإن أكن

مناديَ أجابت من دعانى ولبَّتِ

ثم يزعم فيرى: بأن كل الصلوات والضراعات والدعوات لا ترفع إلى الله ، وإنما ترفع إليه ، فيقول :

وكلٌّ الجهاتِ الستِّ نحوى توجهت

بما تمَّ من نسكٍ وحجٍّ وعمرةِ

لها صلواتى بالمقام أقيمها وأشْهَدُ فيها أنها لى صلَّتِ

* * *

ثم يزعم فيرى : أن الحقيقة الإلهية ، ما هى إلا رب تجسد فى أنثى تشتهى مفاتنها ، كما آمن بذلك غيره . وقد أسرفوا فى تأكيد أنوثة الرب ، وتغنوا بها فى حلقات الرقص الصوفى ، وهتفوا بليلى وبثينة وعَزة وسعاد . فيقول :

فنى النشأة الأولى تراءت لآدم بمظهر حوَّا قبل حكم النبوة

وتظهرُ للعشاقِ فى كلِّ مظهرٍ

من اللَّبْس فى أشكالِ حسنٍ بديعة

فنى مرَّةٍ لُبنى وأُخرى بثينةٍ وآونة تدعى بعزة عزتِ

* * *

ثم ننتقل إلى كاهن صوفى آخر ، هو (ابن عربى) صاحب كتاب « فصوص الحِكَمَ » فنراه فيما أنقله : يسوِّى بين الخالق والمخلوق فى الذات وفى الصفات وفى الأفعال ، وفى الحقيقة وفى الماهية وفى الوجود فيقول :

ألا ترى الحق يظهر بصفات المحدثات وأخبر بذلك عن نفسه ، وَبصفات

النقص وبصفات الذم . ألا ترى المخلوق يظهر بصفات الحق من أولها إلى آخرها . وكلها حق كما هي صفات المحدثات حق للحق .

ثم يعتقد فيرى : بأن ذات الله تجمع بين النقيضين . فهو الوجود وهو العدم ، وهو الخالق وهو المخلوق ! . وتجمع ذات الله بين الضدين . فهو كل موجود وكل معدوم . وهو المؤمن وهو الكافر !

ثم نراه فى كتابه (الفتوحات المكية) يؤمن بتجسيد الحقيقة الإلهية فى كل شىء فيقول : سبحان من أظهر الأشياء وهو عينها . إن العارف يرى الحق فى كل شىء . بل يراه عين كل شىء .

ثم نراه : يؤمن برب تجسدت ذاته فى أنثى تشتهى مفاتنها فيقول :

فإذا شاهد الرجل الحقّ فى المرأة . كان شهوداً فى منفعل . وإذا شاهده فى نفسه من حيث ظهور المرأة عنه شاهده فى فاعل . وإذا شاهده فى نفسه من غير استحضار صورة ما تكون عنه . كان شهوده فى منفعل عن الحق بلا واسطة . فشهوده للحقِّ فى المرأة أتم وأكمل . لأنه يشاهد الحق من حيث هو فاعل منفعل . ومن نفسه من حيث هو منفعل خاصة . فلهذا أحب النبى النساء لكمال شهود الحق فيهن . إذ لا يشاهد الحق مجرداً عن المواد أبداً . فشهود الحق فى النساء أعظم الشهود وأكمله . وأعظم الوصلة النكاح !

ثم ننتقل إلى كاهن صوفى آخر ، وهو الجيلى ، صاحب كتاب (الإنسان الكامل) يقولُ مدّعِياً الربوبية :

وقد حُزتُ أنواع الكمال وإننى

جمالُ جلالِ الكلُّ ما أنا إلا هو

ومهما ترى من عرشه ومحيطه ... وكرسيه أو رفرفِ عزّ مجلاه

فإنىَ ذاك الكل والكل مشهدى

أنا المتجلِّى فى حقيقته لا هو

وإنىَ ربٌ للأنام وسيد جميع الورى اسم وذاتى مسمّاه

* * *

لىَ الملك والملكوت نسجى وصنعتى

لىَ الغيبُ وَالجبروت منّىَ منشاه

* * *

ثم ننتقل إلى كاهن صوفى آخر هو (البسطامى) يقول :

« لئن ترانى مرة ، خير لك من أن ترى ربك ألف مرة » .

« طاعتك لى يا رب أعظم من طاعتى لك » .

« تا الله إن لوائى أعظم من لواء محمد يوم القيامة » .

* * *

هكذا يزعم أهل الخبل والشطحات هذه المزاعم بإفكٍ وطغيان . وهكذا يدينون بكل ما دان به الملحدون الجاحدون ، فَيَدْعون إلى عبادة كل شىء . ويدّعون بأن هذه المعتقدات هى الروحانية والربانية . وعلينا أن نذكرّ بأنه ما عبدت الصابئة إلا الكواكب فكفرت . وما عبد اليهود إلا العجل ، فكفروا . وما عبد النصارى إلا الأقانيم الثلاثة فكفروا . وما عبدت الجاهلية إلا الأصنام التى أقاموها لمن مات من أوليائهم فكفرت . وقد استحق الجميع لعنة الأبد وغضب الأبد والخلود فى النار ، يا أهل الخبل والشطحات !

فهلُمَّ معى قبل أن يطويك التيه فى كهوف الظلام . وقبل أن تجتاحك العواصف والتيارات الجاحدة الملحدة . وبأدب العبودية نتأدب ثم نسمى ؟

فى الوجود . ندعوا بدعوة الإيمان والتنزيه والتوحيد . ونردد قول الله عز وجل (ويا قوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار . تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم ، وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار . لا جَرَمَ أنما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وأن مردّنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار . فستذكرون ما أقول لكم وأفوّض أمرى إلى الله ، إن الله بصير بالعباد) ٤١ — ٤٤ غافر .

تأدب بأدب العبودية . ولا تزعم بأن معية الله معنا فى كل مكان ، وأنه سبحانه عين المخلوقات ، وأنه سبحانه حالٌّ أو محلٌّ لها . ولا تقل عن المعيَّة إلا بما نطقت به النصوص الصريحة فى القرآن والسنة . ولا تقل عن فوقيَّة الله واستوائه على عرشه إلا بما أخبرنا به أعرف الخلق بربه محمد صلى الله عليه وسلم .

تابع معى ما قاله الإمام العارف ابن القيم فى المعيَّـة والفوقيَّة : يقول فى المعية : إن الله تعالى بيّن فى غير موضع أنه خلق السموات والأرض ومابينهما . وأن له ملك السموات والأرض وما بينهما . وأن الأرض قبضته يوم القيامة والسموات مطويّاتٌ بيمينه . وأن كرسيه وسع السموات والأرض . وأنه يمسك السموات والأرض . وهذه نصوص صريحة فى أن الرب تعالى ليس عين هذه المخلوقات ولا صفةً ولاجزءاً منها . فإن الخالق غيرالمخلوق ، وليس بداخل فيها محصور . بل هى صريحة فى أنه مباينٌ لها ، بلى هى هادية للقلوب عاصمة لها أن تفهم من قوله : (وهو معكم) أنه سبحانه عين المخلوقات أو حالٌّ فيها أو محلٌّ لها .

وفى المعية قال أيضاً : إنه ليس ظاهر اللفظ ، أى لفظ (مع) ولا حقيقته ، أنه سبحانه مختلط بالمخلوقات ممتزجٌ بها . ولا تدل لفظة (مع) على هـذا بوجه من الوجوه ، فإن (مع) فى كلامهم للصحبـة اللائقة . وهى تختلف باختـلاف

متعلقاتها ومصحوبها. فكون نفس الإنسان معه (كونٌ). وكون علمه وقدرته وقوته معه (كونٌ) وكون زوجته معه (كونٌ) . وكون رئيسه وأميره معه (كونٌ) . وكون ماله معه (كونٌ) . فالمعيّة ثابتة فى هذا كله مع تنوعها واختلافها . فيصح أن يقال : زوجته معه وبينهما شُقّةٌ بعيدة . وكذلك يقال مع فلان دارُ كذا وضيعة كذا .

فتأمل نصوص القرآن فى المعية : (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار) (وكونوا مع الصادقين) (واركعوا مع الراكعين) (وما آمن معه إلا قليل) ، وأضعاف ذلك . هل يقتضى موضعٌ واحد منها مخالطةً فى الذوات أو التصاقاً وامتزاجاً ؟ .

فكيف تكون حقيقة المعية فى حق الرب ذلك . حتى يُدّعى أنها ـ أى المعية ـ مجاز لا حقيقة ؟! .

فليس فى ذلك ما يدل على أن ذاته تعالى فيهم ، ولا ملاصقة لهم ، ولا مخالطة ، ولا مجاورة بوجه من الوجوه .

وهذا الاقتران فى كل موضع بحسبة يلزمه لوازم بحسب متعلَّقه . فإذا قيل إنه مع خلقه بطريق العموم ، كان من لوازم ذلك : علمه بهم ، وتدبيره لهم ، وقدرته عليهم . وإذا كان خاصاً كقوله : (إن الله مع الذين اتقوْا والذين هم محسنون) ، كان من لوازم ذلك : معيته لهم بالنصرة والتأييد والمعونة .

فمعيّةُ الله مع عبده نوعان : عامة وخاصة. وقد اشتمل القرآن على النوعين. وقد أخبرالله تعالى أنه مع خلقه مع كونه مستوياً علىعرشه . وقرن بين الأمرين كما قال تعالى : (هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش ، يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج

فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير) فأخبر أنه خلق السموات والأرض ، وأنه استوى على عرشه ، وأنه مع خلقه يبصر أعمالهم من فوق عرشه . فعلوّه لا يناقض معيته ، ومعيته لا تبطل علوّه ، بل كلاهما .

* * *

وهلمّ معى لنتابع قول الله عز وجل فى الفوقيّة واستوائه على عرشه :

(إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش ، يدبر الأمر ، ما من شفيع إلا من بعد إذنه ، ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون . إليه مرجعكم جميعاً وعد الله حقاً ، إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط ، والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون) يونس ٣ ، ٤ .

(الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من وَلىّ ولا شفيع أفلا تتذكرون . يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرُجُ إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون . ذلك عالم الغيب وَالشهادة العزيز الرحيم . الذى أحسن كل شىء خلَقه وبدأ خَلق الإنسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سوّاه وَنفخ فيه من روحه وَجعل لكم السمع وَالأبصار وَالأفئدة قليلا ما تشكرون) السجدة ٤ — ٩ .

* * *

وهلمّ معى مرة ثانية لنتابع قول العارف الإمام ابن القيم فى الفوقية والاستواء على العرش، قال :

فمن شهد مشهد علو الله على خلقه ، وَفوقيّته لعباده ،وَاستواءه على عرشه ،

وَتعبَّد بمقتضى هذه الصفة ، بحيث يصير لقلبه صمد يعرج القلب إليـه ، مناجياً له مطرقاً، وَاقفاً بين يديه وقوف العبد الذليل بين يدى الملك العزيز . فيشعر بأن كَلِمَه وَعمله صاعد إليه، معروض عليه . مع أوفى خاصته وَأوليائه . فيستحى أن يصعد إليه من كَلِمِه ما يخزيه وَيفضحه هنـاك . وَيشهد نزول الأمر وَالمراسيم الإلهيـة إلى أقطار العوالم كل وَقت بأنواع التـدبير والتصريف : من الإماتة والإحياء ، وَالتولية والعزل ، والخفض والرفع ، وَالعطاء وَالمنع ، وَكف البلاء وَإرساله، وتقلب الدول ومداوَلة الأيام بين النـاس . إلى غير ذلك من التصرفات فى المملـكة التى لا يتصرف فيها سـواه . فمراسيمه نافذة فيها كما يشـاء . (يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إلية فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) . فمن أعطى هذا المشهد حقه معرفة وعبودية استغنى به .

* * *

تأدب بأدب العبودية . وَلا تنـكر ما اتصفت به الذات العليـة من كمال القدرة . وَلا تنـكر ما اتصف به من كمال الحـكمة . ولا تنـكر ما اتصفت به من نفوذ المشيئة ، كما أنـكر الملحدون الجاحدون .

وقد قام الدليل على إثبات ما اتصف به سبحانه فى تنوع المخلوقات وَفى تباين الطبائع بينها .

فمن النور وبدون شهوة وبدون طبائع مذمومة خلق الملائـكة .

وخلق الحيوان بدون عقل وَفيه الشهوة والطبائع المتباينة .

وخلق الجن وَالإنسان وفيهما العقل والشهوة والطبائع المتباينة .

وخلق آدم بدون ذكر ولا أنثى .

وخلق حواء من ذكر دون أنثى .

وخلق عيسى من أنثى دون ذكر .

وخلق سائر المخلوقات من ذكر وأنثى .

ومن الخلق اهتدى من اهتدى وضل منهم من ضل .

فكانت الحجة البالغة التى أقيمت على الناس أجمعين فى تنوع الأدلة وتصريف الآيات وضرب الأمثال . ليدركوا ما اتصفت به الذات العلية من صفات الرحمة ومن صفات القهر والانتقام : (فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين) الأنعام ١٤٩ .

* * *

تأدب بأدب العبودية . وبالقدر المقدور لا تحتج على الله . وخالف ما كان عليه المشركون الجاحدون .

قال تعالى : (سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء ، كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون) . الأنعام ١٤٨ .

(وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شىء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين) النحل ٣٥ .

(وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون) الزخرف ٢٠ .

* * *

تأدب بأدب العبودية . واجعل شريعة الله لك المورد ، ولمحارم الله لا تستحل . واحذر أنْ تُسْقِط حق الخالق وحق المخلوق بحيلة ومكر . ولا تتعرض لعقاب الله وغضبه كما تعرض له الماكرون والمحتالون فى كافة العصور .

قال تعالى : (ولقد علمتم الذين اعْتَدَوْا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين . فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين) .

(إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصْرِمُنَّها مصبحين . ولا يستثنون . فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون . فأصبحت كالصريم . فتنادَوْا مصبحين . أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين . فانطلقوا وهم يتخافتون . أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين . وغَدَوْا عَلى حَرْدٍ قادرين . فلما رأوها قالوا إنا لضالون . بل نحن محرومون . قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون . قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين . فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون . قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين . عسى ربنا أن يُبْدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون . كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) القلم ١٦ — ٢٢ .

احذر أن تبدل الأحكام والحقائق . وأن تبدل أسماء المحرمات أو أن تغير صورها ، كما فعل المحتالون والماكرون من قبل ، فاغتصبوا الأموال ، واستباحوا الفروج ، وأكلوا الربا بعد ما أخرجوه عن لفظه . فكما قيل : إن الكثير من العلماء لا يعرفون جميع أبواب الربا . أثبت عمر هذا بقوله : « ألا إن آخر القرآن كان تنزيلا آية الربا ، ثم توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يفسرها لنا ، فدعوا ما يريبكم إلا مالا يريبكم » وفى لفظ آخر : « فدعوا الربا والريبة » .

وروى أبو هريرة رضى الله عنه ، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« يأتى على الناس زمان يأكلون فيه الربا . قال : قيل له : الناس كلهم ؟! قال : من لم يأكل منهم نالة من غباره » .

وروى ابن عباس رضى الله عنهما : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يأتى على الناس زمان يستحل فيه خمسة أشياء بخمسة أشياء : يستحلون الخمر بأسماء يسمونها بها . والسحت بالهدية . والقتل بالرهبة . والزنا بالنكاح . والربا بالبيع » .

فخالف أولئك الذين استحلوا محارم الله ، وبدلوا الأحكام والحقائق . فأقبح الحيل . أن تسقط حقاً لازماً أوجبه الله ! . وأن تعارض ما ثبت عن الرسول برأى أو قياس أو استحسان . فما وقعت الفتن فى الأمة إلا بالمعارضة وبسبب التأويل وترجيح آراء أهل الجدل والكلام .

قال تعالى : (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) .

(فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما) .

* * *

تأدب بأدب العبودية : ولا تذكر صحابياً إلا بخير . واقتد دائماً بأفعالهم ، فهم خير قدوة لنا ، ولا تنتقص منهم أحداً ، ولا تقل عنه قولة سوء ، ولا تشوه السمعة . فلنردد قول الله سبحانه عنهم : (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً) .

(والسابقون السابقون . أولئك المقربون . فى جنات النعيم) .

(يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) .

(للفقراء المهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أُولئك هم الصادقون . والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أُوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يُوقَ شُحَّ نفسه فأُولئك هم المفلحون) .

ويقول نبينا عنهم : « لا تسبُّوا أصحابى . فوالذى نفسى بيده . لو أنفق أحدكم مثل أُحد ذهباً ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نصيفه » .

« إن الله اختارنى واختار أصحابى ، فجعلهم أصهارى ، وجعلهم أنصارى ، وإنه سيجىء فى آخر الزمان قوم ينتقصونهم . ألا فلا تناكحوهم . ألا فلا تنكحوا إليهم . ألا فلا تصلوا معهم . ألا فلا تصلوا عليهم . عليهم حلت اللعنة » الشافعى بسنده إلى أنس .

* * *

تأدب بأدب العبودية : واذكر منّة الخالق وفضله عليك . فمن بطن أمك قد أخرجك وأنت لا تعلم ولا تقدر ولا تملك . وبلا سبب منك أسبغ نعمه عليك . وإلى كل غاية محمودة أوصلك ، وقد جاد عليك بكل الأسباب . فاقطع المعوِّقات والعوائق . ورابط على كل ثغر من ثغور الجوارح وثغور الباطن . حتى تنقاد كلها إلى خالقها لتؤدى الحقوق وتقوم بالأوامر . ولا تنحرف وتتبع عوالك ، فاتباع الهوى يزيغ القلب عن هدى الله .

اقطع المعوِّقات والعَوَائق . وافتقر إلى من له الخلق والأمر . ومن بيده تصريف القلوب . ولا تشهد غير فضل الله عليك . فإن من كمال العبودية ، أن يكون افتقارك واحداً للواحد ، وحبك وَاحداً للواحد ، ورجاؤك واحداً للواحد ، وذُلُّك وَاحداً للواحد ، وخوفك وَاحداً الواحد ، وإيثارك واحداً للواحد ، وَذِكرك واحداً للواحد . فاعصم النفس ولا تكن عابداً لكل عبد ، فكل ما سوى الله باطل . وعليك بالمطالب العالية . وأَرِدْ ربك بما يريد ، ليكون لك فوق ما تريد . وأقبل على ربك ليلقاك من بعيد . وَبحوله وقوته تصرف . ليلين لك الحديد .

* * *

تأدب بأدب العبودية . وحاول الوصول إلى مقام الذل والتسليم . واخضع لمراد الحكمة تسلم من الأعطاب ، وتنجو من المهالك ، وتأمن من المخاطر .

ورضى الله عن الإمام ابن للقيم إذ يقول : « إذا أصبح العبد وأمسى ، وليس همّه إلا الله وحده . تحمَّل الله حوائجه ، وَحَمَل عنه كلَّ ما أهمه . وفرَّغ قلبه لمحبته ، ولسانه لذكره ، وجوارحه لطاعته . وإذا أصبح وأمسى والدنيا همه ، حمَّله الله همومها وغمومها وأنكادها ، ووكله إلى نفسه . فشغل قلبه عن محبته بمحبَّة الخلق ، ولسانه عن ذكره بذكرهم ، وجوارحه عن طاعته بخدمتهم وأشغالهم . فهو يكدح كالوحش فى خدمة الغير . وكالكير ينفخ بطنه ، ويعصر أضلاعه فى نفع الغير .

* * *

تأدب بأدب العبودية . وروِّض النفس على الصبر : (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشيِّ يريدون وَجهه) الكهف ٢٨ .

وللصبر مقامات لحاول أن تبلغها . وإن من أعظم مقاماته : الصبر عند الامتحان ، والصبر عند الابتلاء . وكفى الصابر ثناء الله عليه : (إنا وجدناه صابراً نِعْمَ العبد إنه أوّاب) .

وكفاه المدد والعطاء من ربه . قال صلى الله عليه وسلم : « ما أُعطى أحد عطاء خيراً له وأوسع من الصبر » .

« عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، وليس ذلك إلا للمؤمن . إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » .

فعلى الطاعة اصبر ، وعن المعصية اصبر ، وعند الامتحان اصبر ، واشْكُ كل ما أصابك إلى مولاك . فالصبر لا تنافيه الشكوى : (إنما أشكو بَثّى وحزنى إلى الله) يوسف ٨٦ .

ولقد اشتكى الصابر الأمين فقال : « اللهم إليك أشكو ضعفى ، وقلة حيلتى وهوانى على الناس . إلهى أنت رب المستضعفين وأنت ربى . إلى من تكلنى . أإلى قريب يتجهّمنى ، أم إلى عدوٌ قد ملّكته أمرى . إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أُبالى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات أن ينزل بى سخطك ، أو يحلّ علىّ غضبك . لك العتبى حتى ترضى . ولا حول ولا قوة إلا بك » .

وإن من أجمل ماقيل ونقول : « اصبروا بنفوسكم على طاعة الله . وصابروا بقلوبكم على البلوى فى الله . ورابطوا بأسراركم على الشوق إلى الله » .

* * *

تأدب بأدب العبودية . وارض عن الله فى جميع الأحوال . فإن وقع البلاء ، رأيت أن العافية فى الوقوع . وإذا وقع المنع، رأيت أن العطاء فى الوقوع ، وإذا وقع الفقر ، رأيت أن الغنى فى الوقوع .

واحذر من رضا اللسان وحده . فرضى الله عن يحيى بن معاذ إذ يقول : « لا بد أن يقوم الرضا على أصول أربع : تقول : إن أعطيتنى ، وإن منعتنى رضيت . وإن تركتنى عبدت ، وإن دعوتنى أجبت » .

واحذر أن يصرفك عن مقام الرضا صارف طرفة عين . ففى الحديث القدسى : « أنا الله لا إله إلا أنا قدّرت التقادير . ودبرت التدابير . وأحكمت الصنع . فمن رضى فله الرضا منى حتى يلقانى . ومن سخط فله السخط منى حتى يلقانى » .

ثم احذر من ضعف اليقين بإغضابك الخالق وإرضائك المخلوق . فصلوات الله على نبينا إذ يقول : « إن من ضعف اليقين أن ترضى الناس بسخط الله ، وأن تحمدهم على رزق الله ، وأن تذمهم على مالم يؤتك الله . إن رزق الله لايجره حرص حريص ، ولا يردُّه كره كاره . إن الله بحكمته جعل الرّوح والفرح فى الرضا واليقين ، وجعل الهمّ والحزن فى الشك والسخط » .

* * *

تأدب بأدب العبودية . وتوكل على الذى لا يموت . فمن كان بمولاه أعرف كان توكله عليه قوياً . والتوكل مذكور فى القرآن الكريم فى كثير من الآيات .

قال تعالى : (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) التوبة ٥١ .

(فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين) آل عمران ١٥٩

(إنما المؤمنون الذين إذا ذُكِر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تُليت عليهم

آياته زادتهم إيماناً ، وعلى ربهم يتوكلون) الأنفال ٣ .

(فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين) يونس ٨٤ .

(وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا) إبراهيم ١٢ .

(وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده) الفرقان ٥٨ .

(ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير) الممتحنة ٤ .

(قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا) الملك ٢٩ .

(ومن يتوكل على الله فهو حسبه) الطلاق ٣ .

وفى صحيح البخارى : أن ابن عباس رضى الله عنهما قال : (حسبنا الله ونعم الوكيل) قالها إبراهيم حين أُلقى فى النار . وقالها محمد حين قالوا له : (إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) آل عمران ١٧٣ .

فالتوكل ذو أهمية فى جميع الأعمال . وهو جامع لمقام الإيمان . ففى كل أعمالنا على الله نتوكل . وعلينا أن نأخذ بالمشروع من الأسباب . فلقد واجه النبى وأصحابه كل عمل بالأسباب المشروعة . فمن عطل الأسباب فتوكله غير سليم . فعلى الله دائماً نتوكل . ولقول رسولنا نردد : « أسلمت نفسى إليك . وفوّضت أمرى إليك » .

* * *

تأدب بأدب العبودية . وكن مع ربك صادقاً . فالصدق باب لكل واصل .

والله سبحانه أمر بالصدق أهل الايمان فقال : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) التوبة ١١٩ .

وأخبرنا نبينا بأن الصدق هادٍ إلى البر فقال : « إن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة . وإن الرجل ليصدُق حتى يُكتب عند الله صدِّيقاً . وإن الكذب يهدى إلى الفجور . وإن الفجور يهدى إلى النار . وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً) البخارى ومسلم .

فإذا ما أردت الدخول إلى عمل فبالصدق ادخل إليه . وإذا ما أردت الخروج من عمل فبالصدق اخرج منه . فالله سبحانه أمر نبيه أن يسأله المدخل الصدق والمخرج الصدق : (وقل رب أدخلنى مُدخل صدق وأخرجنى مُخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطاناً نصيراً) الإسراء ٨٠

فالزم الصدق عند الدخول فى الأعمال وعند الخروج منها . ولا تدخل إلى عمل ولا تخرج من عمل بذوقك وهواك .

وخير ما نتأثر به قول القائل : « من طلب الله بالصدق أعطاه مرآة يبصر فيها الحق والباطل » .

ورضى الله عن ابن القيم إذ يقول : « كل عملٍ صالح ظاهر أو باطن منشؤه الصدق . وكل عمل فاسد ظاهر أو باطن منشؤه الكذب . والله تعالى يعاقب الكذاب بأن يقعده ويثبطه عن مصالحه ومنافعه . ويثيب الصادق بأن يوفقه للقيام بمصالح دنياه وآخرته . فما استجلبت مصالح الدنيا والآخرة بمثل الصدق ، ولا مفاسدها ومضارها بمثل الكذب .

قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) التوبة ١١٩

(هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم) المائدة ١١٩ .

(فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم) محمد ٢١ .

* * *

تأدب بأدب العبودية . وتجمل بالحياء . فلا خلق يأتى بالخير ويبعث على ترك القبائح ويمنع العيب إلا الحياء . فاجعل الحياء زينة لك فى كل ماتأتى وتفعل . وقد تحدث عن حقيقة الحياء العارف الإمام الجنيد فقال : « الحياء ، رؤية الآلاء ، ورؤية التقصير ، فيتولد بينهما حالة تسمى الحياء » .

تجمل بالحياء فى كل ما تأتى وتفعل ، واترك العيب ولا ترتكب المحرم .

ففى الحديث القدسى : « ابن آدم إنك ما استحييت منى أنسيت الناس عيوبك . وأنسيت بقاع الأرض ذنوبك . ومحوت من أم الكتاب زلاتك » .

تجمل بالحياء فى كل ما تأتى وتفعل . واترك العيب ولا ترتكب المحرم . فلقد طالبنا رسولنا بالحياء فقال : « استحوا من الله حق الحياء . فقالوا : إنا نستحى يارسول الله ، قال : ليس ذلكم ، ولكن من استحى من الله حق الحياء ، فليحفظ الرأس وما وعى ، وليحفظ البطن وما حوى ، وليذكر الموت والبلى . ومن أراد الآخرة ، ترك زينة الدنيا . فمن فعل ذلك فقد استحى من الله حق الحياء » .

تجمل بالحياء فى كل ما تأتى وتفعل ، واترك العيب ولا ترتكب المحرم . فربك يستحى من أن ترد يدك وقد ارتفعت إليه بالدعاء وهى خائبة !

حياء الله لا تدركه الأفهام ولا تكيفه العقول .

ربنا واجعل الحياء زينة لنا فى كل ما نأتى ونفعل .

ربنا وجملنى وجمل اولادى وأصدقائى بالحياء دائماً ، وبالإسلام احفظنا من كل عيب ومحرم !

* * *

تأدب بأدب العبودية . وتعوّد الإيثار ، وباين دنياك كما باينها ثلاثاً علىّ كرم الله وجهه . ولا تحرص على فانيها . وقدم إلى غيرك فضول ما تملك . فالسابقون الأولون رضوان الله عليهم ضربوا لنا فى الإيثار أروع ما يقتدى به . ففى إحدى المعارك ، سقط فى أرض المعركة العديد من الجرحى ، فإذا بالجريح الأول يطلب شربة ماء ، فلما حضر الساقى ليسقيه طلب الجريح الثانى شربة ماء فامتنع الجريح الأول عن الشرب وَقال للساقى : اذهب إلى أخى فلعله أكثر ظمأ منى . فانتقل إليه الساقى ليسقيه ، فطلب الجريح الثالث شربة ماء ، فامتنع الثانى أيضاً عن الشرب وَقال للساقى : اذهب إلى أخى فلعله أكثر ظمأ منى . وهكذا . فإن الساقى ظل ينتقل من جريح إلى جريح حتى وصل إلى آخر جريح فى الميدان . فقال الأخير للساقى : ارجع إلى الأول . فهو أكثرنا ظمأً . فلما وصل إليه الساقى ليسقيه فإذا به قد مات . فانتقل إلى الثانى ليسقيه فإذا به قد مات . وهكذا فقد مات الجميع . والكل يفضل نفس أخيه على نفسه عند الموت والهلاك ! .

وللإيثار مقامات أعلاها : إرضاؤك الخالق وإن غضب المخلوق ، مهما أصابك من بلاء ومحن .

تابع معى قول الله عز وجل : (قُتِلَ أَصحابُ الأُخْدُودِ . النار ذات الوقود . إذ هم عليها قعود . وهم على مايفعلون بالمؤمنين شهود . وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد . الذى له ملك السموات والأرض والله على كل شىء شهيد) البروج ٤ - ٩ .

فإيماناً بالعزيز الحميد . وإيثاراً لرضاه فى كل ما نأتى ونفعل ، كما جاد أصحاب الأخدود بأرواحهم !

* * *

تأدب بأدب العبودية . واجعل زينتك التواضع . ولغير عظمة الله لاتتواضع ولا تذل . ولغير عزة الخالق لا تستكن . ولغير جلاله لا تصغر . ولغير بابه لا تفتقر . فكل النواصى بيده ، وكل القلوب بين أصابعه .

ولا تجعل لمخلوق ولا لشيطان من عبوديتك وتواضعك نصيباً .

فالتواضع وصية أوصانا بها الرسول صلى الله عليه وسلم : « إن الله أوحى إلىّ أن تواضعوا ، حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغى أحد على أحد » .

ولقد كان السابقون الأوائل على تواضع كامل وفى عزّ دائم .

يقول عروة بن الزبير : رأيت عمر رضى الله عنه يحمل على عاتقه قربة ماء . فقلت : يا أمير المؤمنين لا ينبغى لك هذا ! فقال : لمّا أتتنى الوفود سامعين مطيعين دخلت نفسى نخوة فأردت كسرها .

أما آن لنا أن نتأدب بأدب العبودية ؟

أما آن لقلوبنا أن تعى وأن تشهد مقامات أدب العبودية ، فنصحح العقيدة ، ونكون مع الله صادقين ؟

أما آن لنا أن نغير الأوضاع الكاذبة ، وأن نتخلص من المظاهر الزائفة ، لنكون ربانيين معلمين ، لتصبح كلمة الله هى العليا ، فنعيش سادة أعزاء ؟ !

* * *

وَمما قيل فى الأدب :

إن الناس فى الأدب على ثلاث طبقات : أهل الدنيا ، وأكثر أدبهم : الفصاحة والبلاغة وَحفظ العلوم وأسماء الملوك وأشعار العرب .

وأهل الدين : وأكثر أدبهم رياضة النفوس ، وتأديب الجوارح ، وَحفظ الحدود ، وَترك الشهوات .

وأهل الخصوصيات : وأكثر أدبهم طهارة القلب ، ومراعاة الأسرار ، والوفاء بالعهود . وحفظ الوقت ، وقلة الالتفات إلى الخواطر .

وسئل الحسن البصرى عن أنفع الأدب ، فقال : التفقه فى الدين ، والزهد فى الدنيا ، والمعرفة بما لله عليك .

* * *

يقول على كرم الله وجهه : إن هذه القلوب أوعية ، فخيرها أوعى للخير .

والناس ثلاثة : فعالم ربّانى . ومتعلم على سبيل نجاة . وهمج رعاع ، أتباع كل ناعق ، يميلون مع كل صائح ، ولم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجأوا إلى ركن وَثيق .

القسم الثاني

رجـال
هم سـادة الدنيا

زجال

كانت لهم الذاتية المعنوية . فقدروا الحق دائماً لذاته ، وَدَعَوْا إليه .
وبذلوا النفس والنفيس دائماً لتأييده . وارتفعوا به فوق المنافع . واحتقروا من
أجله كلّ غرض دنيوى مهما عظم .

أبو بكر الصديق

رضيَ اللهُ عنه

فإلى رحاب الصديق هلمّ معى . لنكشف عن إيمانه الصادق الفريد عند كل موقف من مواقفه الخالدة .

هلمّ معى لنكشف عن إيمانه الذى لم توهنه خَلْجَةٌ من الشك ، ولا فترة من الريب فى سر ولا علن . فما أحوجنا فى هذه الآونة إلى الاهتداء بإيمانه حتى لا نعصر ولا نقهر . فنعيش أحراراً كما عاش السادة الأوائل !

هلمّ معى إلى موقف خطيب الإسلام الأول . لتحدثنا عنه رواية عائشة أم المؤمنين تقول :

لما اجتمع أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم . وكانوا ثمانية وثلاثين رجلا ، ألحّ أبو بكر فى الظهور . فقال : يا أبا بكر إنا قليل ، فلم يزل أبو بكر يلح حتى ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتفرق المسلمون فى نواحى المسجد ، كل رجل فى عشيرته . وقام أبو بكر فى الناس خطيباً ورسول الله جالس ، فكان أول خطيب دعا إلى الله ورسوله .

وثار المشركون على أبى بكر وعلى المسلمين ، فضربوا فى نواحى المسجد ضرباً شديداً ، ووطىء أبو بكر وَضرب ضرباً شديداً . ودنا منه (عتبة بن ربيعة) وجعل يضربه بنعلين مخصوفين ويحرفهما لوجهه . ونزا على بطن أبى بكر حتى ما يعرف وجهه من أنفه !!

وجاء بنو تيم يتعادون ، فأجلت المشركين عن أبى بكر . وحملت بنو تيم

أبا بكر فى ثوب حتى أدخلوه منزله ولا يشكّون فى موته . ثم رجعت بنو تيم فدخلوا المسجد وقالوا : والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة . فرجعوا إلى أبى بكر . فجعل أبو قحافة وبنو تيم يكلمون أبا بكر حتى أجاب ، فتكلم آخر النهار فقال : ما فعل رسول الله ؟ فدخلت عليه أمه تحاول أن تطعمه أو تسقيه ، فلما خلت به ألحت عليه . فجعل يقول : ما فعل رسول الله ؟ فقالت : والله مالى علم بصاحبك ، فقال : اذهبى إلى (أم جميل بنت الخطاب) فاسأليها عنه . فلما جاءت (أم جميل) قالت : إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله . فقالت (أم جميل): ما أعرف أبا بكر ومحمداً ، وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك فعلت . قالت : نعم . فمضت معها فوجدت أبا بكر صريعاً دنفاً . فدنت (أم جميل) وصاحت تقول : والله إن قوماً نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر وسينتقم الله منهم .

قال أبو بكر : فما فعل رسول الله ؟ قالت (أم جميل): هذه أمك تسمع . قال أبو بكر : فلا شىء عليك منها . قالت (أم جميل) إن رسول الله سالم . قال أبو بكر : أين هو ؟ قالت : فى دار ابن الأرقم . قال : إن لله علىّ ألا أذوق طعاماً ولا أشرب شراباً أو آتى رسول الله .

فخرج أبو بكر يتكىء على أمه وعلى أم جميل ، وأدخلتاه على رسول الله . فأكبّ عليه الرسول يقبله ، وأكب المسلمون عليه . فقال أبو بكر : بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، ليس بى بأس إلا ما نال الفاسق من وجهى . وهذه أمى برة بولدها ، فادعها إلى الله وادع الله لها عسى أن يستنقذها بك من النار . فدعا لها الرسول ودعاها إلى الإسلام فأسلمت .

موقف الغــــار

موقف ليس من السّهل تصويره

فى ليلة الغار . لم يفــكر الصدّيق لحظة فى نفسه ، وإنمـا كان دائم التفــكير فى صاحبه . فوضع الصديق نفسه للرسول فداء ! .

لنترك رواية عمر رضى الله عنه تخبرنا عن موقف ليلة الغار :

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ليلته وانطلق إلى الغار ومعه أبو بكر، فجعل يمشى ساعة بين يديه وساعة خلفه حتى فطن رسول الله فقال : يا أبا بكر : مالك تمشى ساعة خلفى وساعة بين يدىّ ؟ فقال : يا رسول الله أذكر الطلب ، فأمشى خلفك ، ثم أذكر الرصد فأمشى بين يديك ! فقال الرسول : يا أبا بكر : لو كان شىء ، لأحببتَ أن يكون بك دونى ؟ قال : نعم ، والذى بعثك بالحق .

فلما انتهى الرسول وأبو بكر إلى الغار . قال أبو بكر : مكانك يا رسول الله، فلا تنزل حتى أستبرىء لك الغار . فإن هلــكتُ فإنما أنا رجل واحد ، وأما أنت فهلاكك هلاك لــكل الأمة . فلما استبرأه نزل الرسول إلى الغار . فنام النبى وأبو بكر ساهر يخشى عليه أن ينال بأذى أو مكروه !

قال عمر رضى الله عنه : والذى نفسى بيــده لتلك الليلة خير من عمر وآل عمر .

ما أروع قدسية الإيمان فى هذا الموقف . إنه موقف الإيمان بالله وبالرسول الذى تتمثل فيه كل معانى السمو والقداسة ! !

الصدّيق يقدم للاسلام آخر ما يملك

لنترك رواية أسماء رضى الله عنها تحدثنا عن هذا الموقف :

لما خرج الرسول صلى الله عليه وسلم وخرج معه أبو بكر ، احتمل معه كل ماله وانطلق به معه .

قالت : فدخل علينا جدّى (أبو قحافة) وقد ذهب بصره . فقال : والله إنى لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه .

قالت : قلت كلا يا أبت . إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً .

قالت : وأخذت أحجاراً فوضعتها فى كوّة فى البيت الذى كان أبى يضع ماله فيها ، ثم وضعت عليها ثوباً ، ثم أخذت بيده فقلت : يا أبت ضع يدك على هذا المال .

قالت : فوضع يده عليه . فقال لا بأس إذا كان قد ترك لكم هذا فقد أحسن ، وفى هذا بلاغ لكم .

* * *

ثم مع رواية ثانية هى رواية عمر رضى الله عنه إذ يقول :

أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً أن نتصدق ، ووافق ذلك مالاً عندى . فقلت : اليوم أسبق أبا بكر ، فما سبقته يوماً . فجئت بنصف مالى ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : ما أبقيت لأهلك ؟ قلت : أبقيت لهم مثله .

وأتى أبو بكر بكل ما عنده . فقال الرسول صلى الله علية وسلم : ما أبقيت لأهلك ؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله . قلت : إنى لا أسبق أبا بكر إلى شىء أبداً .

روعة الإيمان

عنـد فجيعة المسلمين فى أفضـل الأنبيـاء

لنترك الرواية تحدثنا عن هـذا الموقف الذى وقفه الصـدّيق وقت وقوع الـكارثة ، ونزول الفاجعة ، التى خلعت قلوب المسلمين جميعاً :

لما رجع أبو بكر من داره بالسُّنح قصد إلى بيت عائشة ، حيث كان النبى صلى الله عليـه وسلم مسجًّى فى ناحية من البيت . فـكشف عن وجهه وجعل يقبله ويقول : ما أطيبك حياً وما أطيبك ميتاً .

وخرج إلى النـاس فقام فيهم وقال : أيها الناس : من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات . ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت . ثم تلا قول الله تعالى : (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين) آل عمران ١٤٤ .

هكذا وقف الصديق بإيمانه القوى الفريد وقت الفاجعة ، والمسلمون حيارى لا يصدقون أن الرسول قد مات . وقف الصديق يعلن ويؤكد بالإيمان وبالحق أن البقاء والخلود لم يكن لبشر وإنما هو لله . فأنقذ الأمّة من محنة رهيبة قاسية كانت لا تبقى ولا تذر .

الصدّيق

يلبي تبعات الإيمان ومسئوليات الدين

يحمل الصدِّيق المسئولية بعد موت الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويسرع إلى سقيفة بنى ساعدة ، لكى يقضى على الفتنة القائمة ، ويكبح جماح الطائفيّة التى قامت بين المهاجرين والأنصار ، بسبب الخلافة التى يدّعى كل منهما أحقيته بها دون سواه ! !

فيقف الصدِّيق بينهم ويقول : عظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم . فخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه والإيمان به والمواساة له ، والصبر معه على شدة أذى قومهم لهم وتكذيبهم إياهم . وكل الناس مخالف لهم زارٍ عليهم . فلم يستوحشوا لقلة عددهم ، وبغض الناس لهم ، وإجماع قومهم عليهم . فهم أول من عبد الله فى الأرض ، وآمن بالله وبالرسول . وهم أولياؤه وعشيرته وأحق الناس بهذا الأمر من بعده ولا ينازعهم ذلك إلا ظالم .

وأنتم يا معشر الأنصار . من لا ينكر فضلهم فى الدين ، ولا سابقتهم العظيمة فى الإسلام . رضيكم الله أنصاراً لدينه ورسوله ، وجعل إليكم هجرته . وفيكم جُلّة أزواجه وأصحابه ، فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم . فنحن الأمراء ، وأنتم الوزراء . لا تُفْتاتون بمشورة . ولا تقضى دونكم الأمور .

* * *

هكذا موقف الصدّيق بين المهاجرين والأنصار ، وقد نطق بصوت الإيمان الذى لا يعرف الضعف ولا التردد،ولا يخاف من الأحداث الداهمة مهما اشتدت وعظمت .

وبموقف الصدّيق ومنطقه الحازم تمت المعجزة . واجتاز المهاجرون والأنصار أول تجربة قاسية . وحسموا ما بينهم من خلاف ،ليقدموا إلى البشرية رسالة النور والإيمان .

الصدّيق

يحدد مسئولية الحاكم بأمانة وصدق

فى اللحظة الأولى يقف الصديق بعد توليه الخلافة يحدد مسئولية الحاكم بأمانة وَصدق ، ويعلن أمام الأمة العهد والميثاق فيقول بعد حمد الله والثناء عليه :

أيها الناس : إنى قد وليت عليكم ولست بخيركم . فإن احسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقوّمونى . الصدق أمانة ، والكذب خيانة . والضعيف فيكم قوى عندى حتى أريح عليه حقه إن شاء الله . والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله . لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل . وَلا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمهم الله بالبلاء . أطيعونى ماأطعت الله ورسوله ، فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم . قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله .

هكذا يعلن الحاكم بوضوح فى موقفه أمام الجماهير مشاركته أفراد الرعية فى البأساء وَالضراء ، وَأنه لا امتياز للحاكم ولا استعلاء ولا كبرياء ، وأنه لا سيادة إلا للقانون ، وأن كل الأمة أمامه سواء ! .

الصدّيق

لم تصمد أمام بطولاته عقبة ولا مستحيل

يقف الصدّيق ليؤدى الواجب على أكمل وجه عندما انتفض أهل الردة للقضاء على الإسلام وأبنائه . يقف بقوة لا تعرف الخوف ولا التردد فيخالف رأى أصحابه بعد ما ارتد العرب والعجم بعد موت الرسول صلى الله عليه وسلم . وأبرقوا وتواعدوا (نهاوند) وقالوا : قد مات الرجل الذى كانت العرب تنصر به .

يقف الصديق أمام المهاجرين والأنصار يقول :

إن العرب قد منعوا شاتهم وبعيرهم ورجعوا عن دينهم . وإن العجم قد تواعدوا (نهاوند) ليجمعوا لقتالكم . وزعموا أن هذا الرجل الذى كنتم تنصرون به قد مات ، فأشيروا علىّ ، فما أنا إلا رجل منكم وإنى أثقلكم حملا .

فأطرقوا طويلا . ثم تكلم عمر بن الخطاب فقال :

أرى يا خليفة رسول الله أن نقبل من العرب الصلاة وندع لهم الزكاة ، فإنهم حديثو عهد بجاهلية . فإما أن يردهم الله إلى خير وإما أن يُعز الله الإسلام فنقوى على قتالهم . فما لبقية المهاجرين والأنصار يدان للعرب والعجم قاطبة .

فالتفت الصديق إلى عثمان . فقال مثل ذلك . وقال علىّ مثل ذلك . وتابعهم المهاجرون والأنصار .

فقال الصديق :

إن الله بعث محمداً والحقُّ قلٌّ شريد ، والإسلام غريب طريد ، قد رثَّ حبله ، وقلَّ أهله . فجمعهم الله بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وجعلهم الأمة الباقية الوسطى . والله لا أبرح أقوم بأمر الله وأجاهد فى سبيل الله حتى ينجز الله لنا ، ويفى لنا بعهده . فيُقتل من قتل منّا شهيداً فى الجنة ، ويبقى من بقى منّا خليفة الله فى أرضه . والله لو منعونى عقالا مما كانوا يعطون رسول الله ، ثم أقبل معهم الشجر والمدر والجن والإنس ، لجاهدتهم عليه حتى تلحق روحى بالله . إن الله لم يفرق بين الصلاة والزكاة ! .

الصدّيق

يترك نعيم الحكم ولم ينعم بثرائه

لتصف الرواية لنا ما كان من أمر الصديق أيام حكمه :

يخرج الصديق إلى السوق بعد مبايعته وهو يحمل الأبراد على ساعده لإطعام أبنائه من ثمنها ! .

فيصحبه عمر إلى أبي عبيدة ، ليفرض له في بيت المال نصيباً ! .

فيقول أبو عبيدة للصديق :

إني أفرض لك قوت رجل من المهاجرين ، وكسوة الشتاء والصيف ، على أنْ تردّ الخَلِقَ وتأخذ جديداً بدله .

ظل الصديق على هذه المخصصات مدة حكمه ! .

ولما أحسّ بأنه للحياة مودّع قال : يا أم المؤمنين : إنا مذ ولينا أمر المسلمين لم نأكل لهم ديناراً ولا درهماً . وإنما أكلنا من جريش طعامهم ، ولبسنا من خشن ثيابهم ، وليس عندنا قليل ولا كثير من فيء المسلمين إلا هذا العبد الحبشي ، وهذا البعير الناضح ، وجرد هذه القطيفة !! فإذا متّ فابعثي بها إلى عمر وابرئي منهن !

ففعلت أم المؤمنين ونفذت ما أُمرت به ! .

أفرأيت كيف عاش خليفة المسلمين مدة حكمه . وكيف ودع دنيانا الفانية ؟! .

أيها الحكام . .

أيها المحكومون فى كافة أنحاء الدنيا . .

هـذا هو خليفة الأمة الإسلامية ، لم يأكل إلا جريش طعام أمتـه . ولم يلبس إلا من خشن ثيابها ! .

هذا هو الصدّيق . يا عبيد المادة والشهوات والملذات ، قد تبرأ قبل موته من عبد وبعير وجرد قطيفة . وأمر أن ترد إلى بيت المال ! .

اعقلوا جيداً كيف عاش خليفة الأمة ، وكيف ودع الحياة ، وما أبقى على شىء يملكه ، وقد كان من قبل يملك الثراء الواسع العريض . ثم يلقى ربه ولم يبق شيئاً من المال الذى فتنتم به ! !

أمير المؤمنين عمر بن الخطاب

رضى الله عنه

إلى رحاب طاهر كريم آخر لنتزود . وبكل المشاعر والحواس نتوجه .

إلى رحاب عمر أمير المؤمنين . ومعنا تتوجه البشرية لترى كيف كان عمر أمير المؤمنين يؤدى العمل ، بأمانة ، ونزاهة ، وإخلاص ، وشجاعة ، وصدق ، ليعيش أبناء الرعية فى رخاء ويسر . وكيف كان يقف المواقف الخالدة ليؤدى الواجب ويتحمل المسئولية !.

* * *

عمر رضى الله عنه ، يفرق بين الحق والباطل :

لتصف الرواية لنا هذا الموقف :

راح عمر بعد إسلامه يسأل النبى صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله . ألسنا على الحق إن متنا أو حيينا ؟ : فيجيبه النبى : بلى ياعمر . والذى نفسى بيده إنكم على الحق إن متم أو حييتم . فيقول عمر : ففيم الاختفاء إذاً ؟ والذى بعثك بالحق لتخرجن ولنخرجن معك .

فيخرج النبى صلى الله عليه وسلم ومعه المسلمون فى صفين : أحدها فيه عمر ، والآخر فيه حمزة ، ودخلوا المسجد هكذا ، وقريش تنظر وتعلوها كآبة ، فلا يجرؤ شليط منها ولا حكيم أن يقترب .

بعدها أقبل الكثيرون على الإسلام .

قد ترك هذا الموقف الأثر الطيب عند القبائل ، وأصبحوا لا يخشون إيذاء ولا عذاباً بعد ذلك .

يقول ابن مسعود : « ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر . كان إسلامه فتحاً . وكانت هجرته نصراً . وكانت إمارته رحمة . ما كنا نستطيع أن نصلى فى البيت حتى أسلم عمر » .

* * *

موقف عمر عند موت عبد الله بن أبىّ بن سلول :

لتصف الرواية لنا هذا الموقف :

لما توفى ابن أبىّ : دُعِى له رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ليصلى عليه . فلما قام رسول الله وثبت إليه ، فقلت : يا رسول الله أتصلى على ابن أبىّ ؟ وقد قال يوم كذا ، كذا وكذا ، أعدد عليه قوله . فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : أخِّر عنى ياعمرُ ، فلما أكثرت عليه قال : أما أنى خيِّرت فاخترتُ . لو أنى أعلم أنى لو زدت على السبعين يُغفر له لزدت عليها .

قال : فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم انصرف . فلم يمكث إلا يسيراً . حتى نزلت الآيتان من براءة (ولا تصلِّ على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون) .

قال : فعجبت بعدُ من جرأتى على رسول الله يومئذ (البخارى والترمذى والنسائى) .

موقف أمير المؤمنين من نفسه

عمر أمير المؤمنين يقول : خدى على الأرض لأهل العفاف والكفاف .

يقف أمام الجماهير بعد أن تمت له البيعة فيقول بعد حمد الله والثناء عليه :

أيها الناس : ما أنا إلا رجل منكم ولولا أنى كرهت أن أرد أمر خليفة رسول الله ما تقلدت أمركم ، اللهم إنى غليظ فلينى . اللهم إنى ضعيف فقونى . اللهم إنى بخيل فسخنى . إن الله ابتلاكم بى وابتلانى بكم . وأبقانى فيكم بعد صاحبى . فوالله لا يحضرنى شىء من أمركم فيليه أحد دونى . ولا يتغيب عنى فآلو فيه عن الجزاء والأمانة . ولئن أحسنوا لأحسنن إليهم . ولئن أساءوا لأنكلن بهم .

ولما رأى فى وجود العرب أنهم يخافون من شدته وغلظته قال :

بلغنى أن الناس هابوا شدتى وخافوا غلظتى وقالوا :قد كان عمر يشتد علينا ورسول الله بين أظهرنا ، ثم اشتد علينا وأبو بكر والينا دونه ، فكيف وقد صارت الأمور إليه ؟ .

ومن قال ذلك فقد صدق ! .

إننى كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكنت عبده وخادمه . وكان من لا يبلغ أحد صفته من اللين والرحمة وكما قال الله (بالمؤمنين رءوف رحيم) فكنت بين يديه سيفاً مسلولا حتى يغمدنى أو يدعنى فأمضى . فلم أزل مع رسول الله حتى توفاه الله وهو عنى راض ، والحمد لله كثيراً وأنا به أسعد .

ثم ولى أمر المسلمين (أبو بكر) فكان من لا تنكرون دعته وكرمه

ولينه . فكنت خادمه وعونه ، أخلط شدتى بلينه . فأكون سيفاً مسلولاً حتى يغمدنى أو يدعنى فأمضى . فلم أزل معه كذلك حتى قبضه الله عز وجل وهو عنى راض . فالحمد لله على ذلك كثيراً وأنا به أسعد .

ثم إنى وليت أموركم أيها الناس . فاعلموا أن تلك الشدة قد أضعفت ، ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدى على المسلمين . فأما أهل السلامة والدين والقصد ، فأنا ألين لهم من بعضهم لبعض . ولست أدع أحداً يظلم أحداً أو يتعدى عليه حتى أضع خده على الأرض وأضع قدمى على الخد الآخر حتى يذعن بالحق . وإنى بعد شدتى تلك أضع خدى على الأرض لأهل العفاف وأهل الكفاف . ولكن علىّ أيها الناس خصال أذكرها لكم فخذونى بها :

لكم عَلَيّ ألا أجتبى شيئاً من خراجكم ولا ما أفاء الله عليكم إلا من وجهه .

ولكم علىّ إذا وقع فى يدى ألا يخرج منى إلا فى حقه .

ولكم علىّ أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم إن شاء الله وأسد ثغوركم .

ولكم علىّ ألا ألقيكم فى المهالك ، ولا أجمركم فى ثغوركم ، وإذا غبتم فى البعوث فأنا أبو العيال .

فاتقوا الله عباد الله . وأعينونى على أنفسكم بكفها عنى ، وأعينونى على نفسى بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وإحضارى النصيحة فيما ولانى الله من أمركم ! .

* * *

يعلن عمر أمير المؤمنين فى شجاعة أمام الجماهير كما رأينا ، كيف يتحمل الحاكم المسئولية ، وكيف يؤدى الواجب لتستقيم الأمة !

ولقد بلغ من شدة شعوره بالمسئولية أن يسأل غلامه عما يجده من تغيير فى طعم اللبن الذى اعتاد أن يشربه من ناقتـه الخاصة عنـد كل صباح ، فيخبره الغلام بأنه قد توجه إلى ناقته الخاصة لاستحضار اللبن ، فوجد الرضيع قد انفلت عليها وشرب لبنها . فتوجه إلى بيت المـال وحلب ناقة منـه وقدم إليه اللبن الذى قد شربه . فصـاح عمـر غاضـباً : واسوءاً لعمر . لقد أسقيتنى جمـراً فى بطنى ! !

* * *

ثم نراه يشارك أفراد الرعيـة فى مجاعتهم وفيما أصيبوا به فى عام الرمادة ، ويتولى بنفسه كل شئونهم ويأكل مما يأكلون .

فلقد قدموا فى يوم إليه سنام وكبد جزور قد نحروها . فرفض أن يأكل منها وقال قولته الخالدة « بئس الوالى أنا ، إن أكلت الطيب وتركت للنـاس الـكراديس » .

ظل يتحمل المسئوليـة بصدق وإيمان . فتعجب بعض أصحابه من أمره ، وكيف يعيش وأهله على كفاف وكنوز الفرس والروم قدمت إليه ، ووضعت بين يديه . فاتفقوا أن تزاد له مخصصاته نظراً لازدياد تبعاته واحتياجاته . فأرسلوا إليه بأمهات المؤمنين (عائشة وحفصة) .

لتصف لنا الرواية ما حدث :

تقول أم المؤمنين عائشة : يا أمير المؤمنين . أتأذن لى أن أكلمك ؟

يقول عمر : تكلمى يا أم المؤمنين . تقول : لمن رسول الله صلى الله عليه وسلم مضى لسبيله إلى جنته ورضوانه لم يرد الدنيا ولم ترده . وكذلك مضى أبو بكر على إثره لسبيله ، بعد أن أحيا سنن رسول الله ، وقتل المكذبين ، وأدحض حجة المبطلين بعدله فى الرعية ، وقسمه بالسوية ، وإرضاء رب البرية . فقبضه الله إلى رحمته ورضوانه وألحقه بنبيه . ولم يرد الدنيا ولم ترده . وقد فتح الله على يديك كنوز كسرى وقيصر وديارهما . وحمل إليك أموالها ، ودانت لك أطراف المشرق والمغرب ، ونرجو من الله المزيد وللإسلام التأييد . ورسل العجم يأتونك ، ووفود العرب يردون عليك . وعليك هذه الحُلة وقد رقعتها اثنتى عشرة رقعة . فلو غيرتها بثوب يُهاب فيه منظرك . ويُغْدى عليك بجفنة من الطعام ، ويراح عليك بجفنة . تأكل أنت ومن حضر من المهاجرين والأنصار .

فبكى أمير المؤمنين بكاء شديداً وقال : يا أم المؤمنين سألتكِ بالله ، هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم شبع من خبز بُرٍّ عشرة أيام أو خمسة أو ثلاثة ، أو جمع بين عشاء وغذاء حتى لقى الله ؟

قالت : لا .

فقال : هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قُرِّبَ إليه طعام على مائدة فى ارتفاع شبر من الأرض ، فكان يأمر بالطعام فيوضع على الأرض ، ويأمر بالمائدة فترفع ؟

قالت عائشة وحفصة : اللهم نعم .

فقال : أنتما زوجة رسول الله وأمهات المومنين ، ولكما على المؤمنين حَقٌّ

وعليّ خاصة . وقد أتيتما تُرَغِّبانى فى الدنيا . وإنى لأعلم أن رسول الله صلى الله عليه وَسلم لبس جبة من الصوف فربما حك جلده من خشونتها أتعلمان ذلك ؟!.

قالتا : نعم .

فقال : أتعلمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مغفوراً له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وقد أمسى جائعاً، ولم يزل راكعاً وَساجداً وباكياً ومتضرعاً آناء الليل والنهار إلى أن قبضه الله ؟ فلا أكل عمر طيباً ، ولا لبس ليناً ، فله أسوة بصاحبيه !! .

إن مثلى ومثل أصحابى كثلاثة سلكوا طريقاً ، فمضى الأول وقد تزود فبلغ المنزل . ثم اتّبعه الآخر فسلك طريقه فأفضى إليه . ثم الثالث ، فإن لزم طريقهما ورضى بزادهما ألحق بهما . وإن سلك غير طريقهما لم يجتمع بهما .

فخرجت عائشة وَحفصة من عنده وأخبرتا أصحاب الرسول بما قاله عمر . وقد ظل على حاله عزوفاً عن الدنيا، بعيداً عن الزهو والغرور حتى لقى ربه .

* * *

ولما قدمت إليه غنائم (القادسية والمدائن وجلولاء) نظر إلى ما حوته من ياقوت وزبرجد وجواهر . فبكى وانتحب من شدة البكاء وصاح يقول : اللهم إنك منعت هذا رسولك ونبيك . وكان أحب إليك منى وَأكرم . ومنعته أبا بكر وكان أحب إليك منى وأكرم ، وأعطيته عمر من بعدهما . فأعوذ بك أن تكون أعطيتنى لتمكر بى ! .

بكى عمر أمير المؤمنين واشتد بكاؤه ، فأشفق الحاضرون عليه .

فيقول عبد الرحمن بن عوف : يا أمير المؤمنين : إنه لموطن شكر فلماذا البكاء ؟ .

فيقول رضى الله عنه : إنى أخشى على أمة محمد التحاسد والتباغض ، وأن يمزقها هذا المال كما مزق دولة الفرس والروم ! .

* * *

أيها الحكام فى كل مكان . .

لقد أبكت عمر أمير المؤمنين كنوز الفرس والروم بكل ما حوته من ذهب وجواهر ، لأنه كان يخشى أن تصاب أمة محمد بالترف والدّعة ، فتنصرف عن القيم الفاضلة التى تضمن لها حياة المجد والعزة والسيادة ! .

اشتد بكاء عمر أمير المؤمنين من تلك الكنوز التى قدمت إليه . غير أنه لم يتركها فوزعها على المسلمين بالتساوى ، وقد عزف عنها وعن كل ما فى الدنيا ، ورضى بالكفاف أسوة بصاحبيه حتى لقى ربه ! .

أمير المؤمنين رضى الله عنه يقول :

إن نفسى قد أعجبتنى

عند وادٍ من الأودية ، وفى الطريق إلى عرفات :

يقف عمر أمير المؤمنين ، وقد مرَّ بخاطره تلك السياط التى ألهبت جسده من والده وهو يرعى الإبل . فيقول لمن فى معيته : كنت فى هذا الوادى أرعى إبل الخطاب . ولقد كان الخطاب فظًا يتعبنى إذا عملت ، ويضربنى إذا قصرت . وقد أصبحتُ اليوم ولا أحد فوقى ، وبى يضرب الناس المثل .

وفى مكان آخر يقول :

اليوم وقد أصبحتُ ولا أحد فوقى . وَقبل الإسلام كنت أؤاجر نفسى بطعام بطنى . وقد أعجبتنى نفسى اليوم ، فلا بد من وضعها حيث كانت .

وفى مكان آخر يقول :

إذا أتيتَ ياعمر ربك غداً فماذا تقول ؟ وقد كنت وضيعاً فرفعك الله . وكنت ضالا فهداك الله . وكنت ذليلا فأعزك الله ! .

وفى مكان آخر يقول :

والذى نفسى بيده . لولا أن تنقص حسناتى لشاركتكم فى لين عيشكم . ولو شئت لكنت أطيبكم طعاماً ، وأرفهكم عيشاً ، ولنحن أعلم بطيب الطعام من كثير من آكليه . ولكنا ندعه ليوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها . وإنى لأستبقى طيباتى لأنى سمعت الله يقول عن أقوام : (أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها) الأحقاف ٢٠ .

وفى مكان آخر يقول :

إنى لنت للناس حتى خشيت الله فى اللين . ثم اشتددت عليهم حتى خشيت الله فى الشدة . فأين المخرج ؟

* * *

يامن تقلدتم المناصب ولا كفاءة لكم . ووصلتم إلى أهدافكم بالمكر والغدر والخيانة . ثم تزلزلت من أعمالكم كل القيم فذهبت وكأنها لم تكن ! ثم تعاملتم مع أبناء الوطن بكل أساليب النفاق والكذب والرياء .

أرأيتم كيف كان عمر أمير المؤمنين يضع نفسه التى هدمت كل قلاع الشرك ، ودكت كل حصون الظلم ، وبعد أن أصبح سيداً للدنيا ولا أحد فوقه ؟ .

أرأيتم كيف كان عمر أمير المؤمنين يحاسب نفسه بعد قدرته وتحكمه فى الدنيا ويضعها حيث كانت ؟ !

موقف أمير المؤمنين من الولاة والحكام

يلزمنا أن نتابع متنوعات من توجيهاته التى أرسل بها إلى الولاة والحكام ، لندرك ما كان عليه عمر أمير المؤمنين من يقظة وشعور لا ينى ولا يغفل فى متابعة أعمال الجميع .

يقول رضى الله عنه لوالٍ من الولاة :

إنى لم أستعملك على دماء المسلمين ، ولا على أعراضهم . ولكنى استعملتك لتقيم فيهم الصلاة ، وتقسم بينهم ، وتحكم فيهم بالعدل .

ثم هو ينهاه عن ركوب دابة مطهمة . وعن لبس الثوب الرقيق . وعن أكل الطعام الرافه . وعن إغلاق بابه دون حوائج الناس .

* * *

ثم يوجه أبا عبيدة فيقول :

أوصيك بتقوى الله الذى يبقى ، ويفنى ما سواه . الذى هدانا من الضلالة وأخرجنا من الظلمات إلى النور . وقد استعملتك على جند (خالد بن الوليد) فقم بأمرهم الذى يحق عليك . ولا تقدم المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة . ولا تنزلهم منزلا قبل أن تستريده لهم وتعلم كيف مأتاه . ولا تبعث سرية إلا فى كثف من الناس . وإياك وإلقاء المسلمين فى هلكة . وقد أبلاك الله بى وأبلانى بك . فغمض بصرك عن الدنيا وأله قلبك عنها . وإياك أن تهلكك كما أهلكت من كان قبلك ، فقد رأيتم مصارعهم .

* * *

ثم يوجه (سعد بن أبى وقاص) فيقول :

يا سعد ، لا يغرنَّك من الله أن قيل خال رسول الله وصاحبه . فإن الله عز وجل لايمحو السيء بالسيء ، ولكنه يمحو السيء بالحسن . وليس بين الله وبين أحد نسب إلا بطاعته . فالناس شريفهم ووضيعهم فى دين الله سواء . الله ربهم وهم عباده ، يتفاضلون بالعافية ، ويدركون ماعنده بالطاعة .

* * *

ثم يوجه (أبا موسى الأشعرى) فيقول :

إن للناس نُفْرة من سلطانهم ، فأعوذ بالله أن تدركنى وإياك . فأقم الحدود ولو ساعة من النهار . وإذا حضر أمران أحدهما لله والآخر للدنيا فآثر نصيبك من الله ، فإن الدنيا تنفد والآخرة تبقى . وأخف الفساق واجعلهم يداً يداً ، ورجلا رجلا . وعُد مريض المسلمين واحضر جنائزهم ، وافتح بابك وباشر أمورهم بنفسك ، فإنما أنت رجل منهم ، غير أن الله جعلك أثقلهم حملا . وقد بلغنى أنه نشأ لك ولآل بيتك هيئة فى لباسك ومطعمك وَمركبك وليس للمسلمين مثلها . فإياك يا عبد الله أن تكون بمنزلة البهيمة مرت بوادٍ خصب فلم يكن لها همٌّ إلا السمن ، وإنما حتفها فى السمن . واعلم أن العامل إذا زاغ زاغت رعيته . وأشقى الناس من شقيت به رعيته .

* * *

ثم يوجه (عمرو بن العاص) فيقول :

عجبتُ لإبطائكم عن فتح مصر . تقاتلونهم منذ سنين وما ذلك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم . وإن الله تعالى لا ينصر قوماً

إلا بصدق نياتهم . وقد كنتُ وجهتُ إليك أربعة وأعلمتك أن الرجل منهم مقام ألف رجل على ماأعرف . إلا أن يكون غيّرهم ما غيّركم . فإذا أتاك كتابى هذا . فاخطب الناس وحُضَّهم على قتال عدوهم ، ورغّبهم فى الصبر والنية . وقدّم أولئك الأربعة فى صدور الناس ، ومُر الناس أن يكونوا لهم صدمة رجل واحد ، وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة فإنها ساعة تتنزل فيها الرحمة ووقت الإجابة ، وليعج الناس إلى الله وليسألوه النصر على عدوهم .

* * *

ثم يوجه قراراً بعزل (خالد بن الوليد) .

وقد تسلم القرار (أبو عبيدة) فيصعد المنبر وحشود المسلمين أمامه . ثم لا يدرى (أبو عبيدة) ماذا يفعل . إنه فى حيرة لا يدرك لها نهاية . فالحديث عن بطولة (خالد) وعن فتوحاته وانتصاراته على كل لسان وفى كل مكان لا ينقطع !

أمام الجموع المحتشدة وهى فى صمتها الرهيب الحزين . يقف (خالد) أمام (بلال) الذى يجمع يدا (خالد) وراء ظهره ويعقله بعمامته . ثم يعلنه بقرار الاتهام الذى يتهمه فيه عمر أمير المؤمنين بخيانة الأمانة ! .

فلقد منح (خالد) (الأشعث بن قيس) مبلغ عشرة آلاف من الدراهم . فيدفع (خالد) قرار الاتهام بأنه أعطى (الأشعث) من خاصة ماله ولم يعطه من مال المسلمين !

فيبادر (بلال) ويفك عقال (خالد) ويعيد اليه عمامته ويضعها على رأسه . ثم ينزل (خالد) إلى المدينة تنفيذاً لما قد أمر به . ويلتقى بعمر أمير المؤمنين .

فيترك (لخالد) بعد حسابه وإحصاء أمواله مبلغ ستين ألفاً . ثم يرد الباقى إلى بيت مال المسلمين ويعزله عن قيادة الجيش ! ! .

هكذا كان يوجه أمير المؤمنين الولاة والحكام ويتصرف معهم . فلم يكن فى متابعتهم مفرطاً ولا خاضعاً لأى اعتبار من الاعتبارات . فإن وجد من حاكم تفريطاً أو تقصيراً أخذه بالشدة ، وحاكمه على تقصيره وتفريطه .

وكذلك لم يكن فى اختيارهم مجاملا وَلا محابياً وما كانت المتابعة منه للجميع إلا صيانة لمصالح الرعية وعدم إذلال أبنائها .

فيقول رضى الله عنه لأصحابه : ألا إنما كنا نعرفكم وبيننا النبى صلى الله عليه وسلم ، وإذ ينزل الوحى فينبؤنا الله من أخباركم . ألا وإن النبى قد انطلق والوحى قد انقطع فإنما نعرفكم بما نقول لكم . من أظهر منكم خيراً ظننّا به خيراً وأحببناه . ومن أظهر منكم شراً ظننا به شراً وأبغضناه . سرائركم بينكم وبين ربكم . ألا وإنه قد أتى علىّ حين وأنا أحسب أن من قرأ القرآن يريد الله وما عنده . وقد خيل إلىّ بآخرة أن رجالا قد قرأوه يريدون ما عند الناس فأريدوا الله بقراءتكم ، وأريدوه بأعمالكم .

ألا إنى والله لا أرسل عمالى إليكم ليضربوا أبشاركم ويأخذوا أموالكم ، ولكنى أرسلتهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنة نبيكم . فمن وقع له سوى ذلك فليرفعه إلىّ . فوالذى نفسى بيده لأمكننه من القصاص . ألا لاتضربوا المسلمين فتذلوهم ، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم .

موقف أمير المؤمنين رضى الله عنه

من أهله ومن أفراد الرعية وأموالهم

ارتفع عمر رضى الله عنه بإيمانه وأمانته وأخلاقه فوق كافة الشبهات . فلقد وضع أهله كما وضع أفراد الرعية أمام القانون بالسواء ، وما فرّط ولا توانى عن توجيه أهله على الدوام . فلقد قال رضى الله عنه :

إن الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطير إلى اللحم . فإذا وقعتم وقعوا، وإن هبتم هابوا . وَإنى والله لا أُوتى برجل منكم وقع فيما نهيت الناس عنه إلا ضاعفت له العذاب لمكانته منى . فمن شاء منكم فليتقدم ومن شاء فليتأخر .

ثم نراه افرط عدله وأمانته وزهده وخوفه المستديم . من جاه الخلافة ومن نفوذها على نفسه وأهله يعلن رأيه فيقول :

لامأرب لنا فى أموركم . فما حمدت الخلافة حتى أرغب فيها لأحد من أهل بيتى . فلئن كانت خيراً فقد أصبنا منه . وإن كانت شراً فبحسْب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد . ألا إنى قد جهدت نفسى وحرمت أهلى . وإن نجوت كفافاً لا وزر ولا أجر إنى لسعيد .

* * *

عمر أمير المؤمنين .. وأبراد اليمن :

قام رضى الله عنه بتوزيع الأبراد اليمنية ، ولكل واحد قد أعطى برداً ، ولنفسه أخذ برداً . ولما جمع الناس لأمر أراده . قال بعد حمد الله وَالثناء عليه :

اسمعوا رحمكم الله .

فبادره أعرابى بقوله : لا سمع ولا طاعة لك يا عمر . فأخبرنا أولا ما الذى قد فعلته بأبراد اليمن ؟ ! . فإن قلت بأنك أعطيت كل واحد منا برداً ، فنراك بأنك قد امتزت علينا وأخذت بردين ، فإنك أطول القوم وطولك لا يكفيه برد واحد ! .

فنادى أمير المؤمنين ، وطلب من ولده عبد الله بن عمر أن يتحدث عما تم بشأن أبراد اليمن .

فقال : إن كان والدى أطول القوم فإنى أقصر القوم ، وما عندى من زيادة فى بردى أخذها والدى ثم وصلها ببرده !

ارتفعت أصوات الجميع بالتكبير وهى تعلن وجوب السمع والطاعة لأمير المؤمنين .

إن فى هذا الموقف من أمير المؤمنين ، الحجة القائمة من الله على كل حاكم إن عجز أو قصر أو فرط أو ظلم . وعلى كل حاكم أن يشارك رعيته فى ظروفها وفى أحوالها لتسمع له وتطيع ! .

* * *

عمر أمير المؤمنين . . والعجوز :

وقف رضى الله عنه أمام خباء تقيم فيه عجوز . فسألها عن حالها وعن تصرفات عمر .

فقالت العجوز : لا جزى الله عمر خيراً .

سألها عن السبب فقالت : إنى لم أنل من عطائه ديناراً ولا درهماً .

فقال : إنك تقيمين فى هذا المكان النائى وإنه لا يعرف عنك شيئاً .

قالت : وكيف لا يعلم وقد ولاه الله أمر المسلمين فى المشرق وفى المغرب ؟

فبكى عمر . وطلب من العجوز أن تبيعه المظلمة لإنقاذ عمر من النار ! .

فوافق العجوز بعد إلحاح ، وترضى بثمن قدره خمسون ديناراً ! .

يكتب أمير المؤمنين البراءة بينه وبين العجوز :

بسم الله الرحمن الرحيم

إن عمر بن الخطاب ، قد اشترى مظلمة العجوز بخمسين ديناراً ، لتكون له براءة مما تدعيه بين يدى الله عز وجل يوم القيامة ! .

* * *

عمر أمير المؤمنين . . وراعية الغنم :

يدور حوار بين راعية الغنم وبين أمها . يسمع الحوار أمير المؤمنين وهو يطوف ليلا كعادته .

تقول الأم : قومى بنيتى وامذقى اللبن بالماء ليزيد ما قد نقص منه فيفى ثمنه بحاجتنا .

تقول البنت : إنى لن أمذق يا أماه . فلقد نهانا أمير المؤمنين عن المذق وهو حرام .

تقول الأم : قومى وامذق . فإنا فى مكان لا يرانا فيه أمير المؤمنين .

تقول البنت : إن كان أمير المؤمنين لا يرانا ، فإنما يرانا إلهنا الذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء .

بتكليف من أمير المؤمنين تحضر راعية الغنم وأمها إلى مجلسه ومعه أبناؤه من حوله ، وقد استمعوا إلى الحوار الذى دار .

ثم يطلب أمير المؤمنين بعد ذلك تزويج ذات الدين لمن يرغب من أبنائه .

فيرغب فى الزواج ولده (العاصم) وقد تم ذلك وبارك الله لهما .

ثم أنجبت له راعيةُ الغنم بنتاً هى التى أنجبت فيما بعد الخليفة الزاهد (عمر بن عبد العزيز) الذى ملأ عدله آفاق الدنيا .

بطل الانقلاب الروحى الفريد

الخليفة عمر بن عبد العزيز

هلمّ معى إلى أريج سيرة عطرة ، فاح عبيرها ، وانتشر ضياؤها .

هلمّ معى لنروّح عن النفوس المكلومة المعذبة .

هلمّ معى إلى رحاب الخليفة الزاهد (عمر بن عبد العزيز) .

* * *

فى عصر قد اختلت فيه الأوضاع ، وساد فيه الظلم وتحكم . فى عصر قد أجدب فيه الرجال من الخير والفضيلة .

تولى (عمر بن عبد العزيز) الخلافة . فيقف أمام الجماهير يقول :

إنى قد ابتليت بهذا الأمر على غير رأى منى فيه ولا مشورة من المسلمين . وإنى أخلع بيعة من بايعنى . فاختاروا لأنفسكم ولأمركم ما تريدون ! .

فتنطلق الحناجر بأصوات هادرة تؤيد الخليفة وتتمسك به. فيجهش الخليفة بالبكاء ، وينطق بالكلمات الباقية بصوت مخنوق فيقول :

أوصيكم بتقوى الله . واعملوا لآخرتكم ، فإنه من عمل لآخرته كفاه الله أمر دنياه . وأصلحوا سرائركم يصلح الله علانيتكم . وأكثروا من ذكر الموت وأحسنوا له الاستعداد قبل أن ينزل بكم .

إن هذه الأمة لم تختلف فى ربها، ولا فى كتابها، ولا فى نبيها . وإنما اختلفت فى الدينار والدرهم . إنى والله لا أعطى أحداً باطلا، ولا أمنع أحداً حقاً .

أيها الناس : من أطاع الله فقد وجبت طاعته . ومن عصى الله فلا طاعة له . أطيعونى ما أطعت الله ، فإذا عصيتُ فلا طاعة لى عليكم .

إنه لا كتاب بعد القرآن . ولا نبى بعد محمد صلى الله عليه وسلم .

ألا وإنى لست بقاض ، ولكنى مقتد . ولست بمبتدع ، ولكنى متبع .

إن الرجل الهارب من الإمام الظالم ليس بعاص . ولكن الإمام الظالم هو العاصى .

ألا لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

من صحبنا فليصحبنا بخمس ، وإلا فليفارقنا :

يدلنى من العدل إلى مالا أهتدى إليه ، ويكون لى على الخير عوناً ، ويبلغنى حاجة من لا يستطيع إبلاغها ، ولا يغتاب عندى أحداً ، ويؤدى الأمانة التى حملها بينى وبين الناس .

وأول ماقام به الخليفة الزاهد بعد توليته ، أنه أحدث الكثير من التغييرات الحاسمة . فبنفسه وبذويه وأهله ابتدأ ! فتنازل عن كافة دخوله الخاصة ولم يبق لحاجته إلا مائتى دينار ، ورد جميع ما يملك إلى بيت المال ! وما ترك شيئاً يتعلق بحياته ويتعلق بحياة زوجته (فاطمة بنت عبد الملك) إلا وقد غيره ، وكل ما تملكه من والدها رده إلى بيت المال ! .

فانقشع الظلام عن الأمة ، واستردت ماضيها المشرق الوضاء . وعاش الناس أحراراً ، وعادت لهم السيادة والعزة والمجد كما أراد لهم ذلك دينهم .

* * *

حالة عمر بن عبد العزيز بعد توليه الخلافة :

تخبرنا عن ذلك زوجته (فاطمة بنت عبد الملك) فتقول :

دخلت يوماً على (عمر بن عبد العزيز) وهو جالس فى مصلاه ، وقد وضع خدّه على يديه ودموعه تسيل . فقلت :

ما بك يا أمير المؤمنين ؟

فقال : إنى وليت أمر هذه الأمة فتذكرت : الفقير الجائع ، والمريض الضائع ، والعارى المجهود ، واليتيم المكسور ، والأرملة الوحيدة ، والمظلوم المقهور ، والغريب والأسير ، والشيخ الكبير ، وذا العيال الكثير والرزق القليل ، وأشباههم فى أقطار الأرض وأطراف البلاد . فعلمت أن ربى عز وجل سيسألنى عنهم يوم القيامة . وأن خصمى دونهم يومئذ محمد صلى الله عليه وسلم . فخشيت ألا تثبت لى حجة عند خصومته . فلذلك أبكى !! .

* * *

الخليفة الزاهد . . وعمر بن الوليد :

لقد أخضع (عمر بن عبد العزيز) أهله وذويه وأفراد الرعية أمام العدالة والقانون ، لا تمييز ولا تفاوت . فلهذا أساءه (عمر بن الوليد) بالقول . فرد عليه الخليفة الزاهد بالجرأة التى يريدها الحق يقول :

أما أول شأنك يا ابن الوليد . فأمك صنّاجة . كانت تطوف فى سوق (حمص) وتدور فى حوانيتها ثم الله أعلم بها . اشتراها (ذبيان) من أموال المسلمين ، فأهداها لأبيك فحملت بك . فبئس المحمول والمولود . ثم نشأت

فكنت جباراً عنيداً ، وتزعم أنى من الظالمين ، لمّا حرمتك وأهل بيتك فىء الله عز وجل الذى فيه حق القرابة والأرامل والمساكين .

وإن أظلم منى وأترك لعهد الله ، مَن استعملك صبياً سفيهاً على جند من جنود المسلمين . تحكم فيهم برأيك . ولم تكن له فى ذلك نية إلا حب الوالد لولده ، فويل لك وويل لأبيك . ما أكثر خصماؤكما يوم القيامة ، وكيف ينجو أبوك من خصمائه ؟! .

وإن أظلم منى وأترك لعهد الله ، من استعمل (الحجاج بن يوسف) يسفك الدم الحرام ، ويأخذ المال الحرام .

وإن أظلم منى وأترك لعهد الله من استعمل (قرة بن شريك) أعرابياً جِلْفاً على مصر ، وأذن له فى المعازف واللهو والشراب .

فرويداً يابن بنّانة . لو ردّ الفىء لأهله ، لتفرغت لك ولأهل بيتك فوضعتهم على المحجة البيضاء ، فلطالما تركتم الحق . وما رأيته يبيع رقبتك وقسم ثمنك بين اليتامى والأرامل والمساكين . فإنّ لكلّ فيك حقاً .

* * *

الخليفة الزاهد .. ومَسلمة بن عبد الملك :

يقول (مَسلمة) ألا توصى يا أمير المؤمنين ؟!

فهذه مائة ألف دينار مُر بها كما أحببت . فلقد أفرغتَ أفواه أولادك من هذا المال وتركتهم عالة لا شىء لهم ! .

أمير المؤمنين يقول : تُرَدُّ هذه الأموالُ على من أُخذت منه ظلماً ! .

يبكى (مسلمة) ويقول : رحمك الله ، لقد أَلنتَ منا قلوباً قاسية ، وأبقيت لنا فى الصالحين ذكراً .

أمير المؤمنين يقول : أما قولك إنى أفرغت أفواه أولادى من هذا المال ، فوالله ما منعتهم حقاً هو لهم .

وأما قولك لو أوصيت بهم ، فإن وليّى الله الذى نزّل الكتاب وهو يتولى الصالحين . فأولادى أحد رجلين : إما تقى فسيجعل الله له رزقاً . وإما مُكِبٌّ على المعاصى وإنى لا أُقويه على المعصية .

* * *

وأخيراً يموت (عمر بن عبد العزيز) .

ويترك الخليفة التركة ، التى قدرت بسبعة عشر ديناراً !

اشتُرى كفنه بخمسة دنانير . واشتُرى قبره بدينارين . والباقى من التركة وُزع على أولاده الإثنى عشر ! ! .

هكذا ترك الخليفة الزاهد دنيا كم التى أبكته دون انقطاع مدة الخلافة ، وفى الأيام والليالى كلها . انتفض من ربه خشية وفرقاً ! وقدر حق ربه ، وقدر حق الرعية ، وقدم لها من روحه وعافيته، فاستردت مجدها وعزها .

مواقف صادقة من العلماء

رغب (الرشيد) فى سماع الموطأ من (الإمام مالك) .

فيقول مالك : إن هذا العلم منكم خرج ، فإن أعززتموه عز ، وإن أذللتموه ذل ، ومن أراد العلم فليأت إليه ! .

الرشيد يقول : صدق والله مالك . وإلى مجلسه يذهب وبصحبته أولاده .

مالك يقول : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « من تواضع لله رفعه ، ومن تكبر على الله خفضه » . فنزل الرشيد على الفور من مكانه وجلس مع عامة الناس بين يدى مالك .

* * *

يا ورثة الأنبياء .. يا كواكب الهدى ومصابيح الظلام :

من المعلوم أن سلطان الحاكم لا يعلو عليه سلطان .

ولكن إذا احترم العالم علمه نزل الحاكم عند حكمه . فالحاكم لا يرى فى توجيه العالم إياه اعتداء على مقامه ، ولا مساساً به ، ولا تصغيراً لشأنه .

هكذا فعل الرشيد ، وبارك رأى الإمام مالك ، وأسرع إلى مجلسه خضوعاً منه لسلطان العلم والعلماء .

وهكذا بادر فنزل من فوق مقعده ، وجلس على الأرض مع عامة الناس ، تقديراً لهدى السنة وابتعاداً عن الكبر ، ورعاية للعلم ، وتقديراً للعلماء ! .

فتدبروا هذه المعانى الإسلامية العظيمة التى جعلت الحاكم ينزل عند حكم العلماء ! .

* * *

الرشيد يطلب النصيحة من أحد العلماء :

فيقول له : يا هارون . إن الله تعالى قد أجلسك مكان الصديق ، وإنه يطلب منك مثل صدقه .

وإن الله تعالى قد أعطاك موضع الفاروق ، وإنه يطلب منك الفرق بين الحق والباطل مثله .

وإن الله تعالى قد أقعدك موضع عثمان ذى النورين ، وإنه يطلب منك مثل حيائه وكرمه .

وَإن الله تعالى قد أقعدك موضع علىّ بن أبى طالب ، وإنه يطلب منك العدل وَالعلم .

يقول ارشيد : زدنى .

فيقول : إن لله تعالى داراً تعرف بجهنم ، وإنه قد جعلك بواب هذه الدار ، وأعطاك أشياء ثلاثة : أعطاك بيت المال . وأعطاك السيف . وأعطاك السوط . وأمرك أن تمنع الناس من دخولها بهذه الثلاثة . فمن جاءك محتاجاً فلا تمنعه من بيت المال . ومن خالف أمر ربه فأدبه بالسوط . ومن قتل نفساً بغير حق فاقتله بالسيف . فإن لم تفعل ما أمرك الله به ، فأنت الزعيم لأهل النار ، والمتقدم إلى دار البوار .

* * *

يا ورثة الأنبياء .. يا كواكب الهدى ومصابيح الظلام :

إبداء النصح من العلماء إن كان لله فهو واجب مقدس تجب رعايته والسير على هديه ونوره .

أرأيتم كيف تكون النصيحة من العلماء صادقة قوية جريئة ، خالصة لوجه الله لامداراة فيها ولامحاباة ، لاتعرف الزيف ولا الملق ، ولا تخشى لومة لائم ،

ولا تخاف صولة حاكم ، ولا تبغى ذهباً فى يمينه، ولا ترهب سوطاً فى يساره .

أرأيتم كيف يتقبل الحاكم النصيحة من العلماء خاشعاً ومقدراً ، لا ثائراً ولا غاضباً ! .

* * *

الفضيل بن عياض .. والرشيد :

يقول له الرشيد : أتيتك لتحدثنى :

يقول الفضيل :إنك يا هارون. قد حملت نفسك ذنوب الرعية التى سمتهاهوانا وجميع من معك من بطانتك وولاتك ، تضاف ذنوبهم إلى ذنوبك يوم الحساب . فبك بغوا وبك جاروا ، وهم مع ذلك أبغض الناس لك وأسرعهم فراراً منك يوم الحساب . حتى لو سألتهم عند انكشاف الغطاء عنك وعنهم أن يحملوا عنك شِقْصًا من ذنب ما فعلوه ، ولكان أشدهم حباً لك أشدهم هرباً منك . إنى أقول لك ياهارون : إنى أخاف عليك أشد الخوف من يوم تزل فيه الأقدام .

فبكى الرشيد وغشى عليه من شدة البكاء .

فيقول (الفضل بن الربيع) (للفضيل) :ارفق بأمير المؤمنين .

يقول الفضيل : تقتله أنت وأصحابك وتطالبنى الرفق به .

يقول الرشيد : زدنى .

يقول الفضيل : يا هارون ، إن العباس عم النبى صلى الله عليه وسلم جاءه يوماً فقال يا رسول الله : أَمِّرْنى على إمارة . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « يا عمِّ : إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة ، فإن استطعت ألا تكون أميراًفافعل » .

يقول الرشيد : زدنى .

يقول الفضيل : يا حسن الوجه أنت الذى يسائلك الله عز وجل عن الناس

يوم القيامة ، فإن استطعت أن تقى هذا الوجه فافعل . وإياك أن تصبح أو تمسى وفى قلبك غش لأحد من رعيتك ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «من أصبح لهم غاشاً لم يرح رائحة الجنة » .

بكى الرشيد واشتد بكاؤه ، وقال للفضيل : هل عليكَ دَين ؟

قال : نعم . دَين لربى لم يحاسبنى عليه . والويل لى إن سألنى ، والويل لى إن ناقشنى ، والويل لى إن لم ألهم حجتى ! .

يقول الرشيد : إنما أعنى دَين العباد .

يقول الفضيل : إن ربى لم يأمرنى بهذا . وقد قال الله عز وجل :

(وما خلقتُ الجن والإنس إلا ليعبدون . ماأريد منهم من رزق وما أريد أن يُطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) الذاريات ٥٦ — ٥٨ .

يقول الرشيد : لك منى ألف دينار فخذها وأنفقها على عيالك وتقو بها على عبادتك .

يقول الفضيل : سبحان الله . أنا أدلك على طريق النجاة وأنت تكافئنى بمثل هذا ؟!

* * *

يا ورثة الأنبياء ..يا كواكب الهدى ومصابيح الظلام :

هكذا كما ترون عاش العلماء بصورة من التقوى والإيمان .

إنهم لم يطلبوا فانى الدنيا ولا زائل المتاع . إنهم نظروا إلى الدنيا وإلى الحاكم بغير ما نظرتم .

إنهم ذكّروا الحاكم وملء نفوسهم العزة والكبرياء .

إنهم حاسبوه دون رغبة أو رهبة .

إنهم نصحوه بلا خوف ولا وجل .

فرضى الله عن الفضيل وعن كل عالم أعرض عن الدنيا وازدراها .

عمرو بن عبيد .. والمنصور :

فى أبلغ عبارة وأقساها . يقول (عمرو بن عبيد) (للمنصور) :

إن الله عز وجل يوقفك ويسائلك عن مثقال ذرة من الخير والشر . وإن الأمة خصماؤك يوم القيامة . وإن الله لا يرضى منك إلا بما ترضاه لنفسك . ألا وإنك لا ترضى لنفسك إلا بأن يعدل عليك . وإن الله عز وجل لا يرضى منك إلا بأن تعدل على الرعية .

يا أبا جعفر : إن وراء بابك نيراناً تتأجج من الجور . والله ما يُحكم وراء بابك بكتاب الله ولا بسنة نبيه .

فبكى المنصور . وتألم لبكائه (سليمان بن مجالد) وكان واقفاً بسيفه لحراسته .

فقال يا عمرو : إنك قد شققت على أمير المؤمنين .

قال عمرو : ويلك يا سليمان . إن أمير المؤمنين يموت . وإن ما تراه يفقد . وإنك جيفة غداً بالفناء لا ينفعك إلا عمل صالح قدمته . ولَقُرب هذا الجدار أنفع لأمير المؤمنين من قربك إذا كنت تطوى عنه النصيحة ، وتنهى عنه من ينصحه .

يا أمير المؤمنين : إن هؤلاء اتخذوك سلماً إلى شهواتهم . فوالله لئن لم تقبل منهم إلا العدل ليتقربن به إليك من لا نية له فيه .

* * *

يا ورثة الأنبياء .. يا كواكب الهدى ومصابيح الظلام :

هؤلاء هم العلماء الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه . فاستفيدوا من مواقفهم ومن شجاعتهم . فلقد راج الفساد وانتشر ، وعم البلاء وكثر النفاق . وتعددت بطانات السوء والمتملقين فى كل مكان ، حتى تحير البار والفاجر ! !

بشر بن الحارث . . والمأمون :

بينما بشر بن الحارث يناجى ربه ويقول :

إلهى ، فتنتنى الدنيا وخدعنى سرابها . إلهى إليك المرجع والمآب . أنت ربى وآخذ بناصيتى . أنت سيدى ومولاى . لا تكلنى إلى عبادك ، ولا تفتن نفسى بما فتن به الناس .

يدخل عليه الإمام أحمد ويخبره بأن المأمون يطلبه للقائه .

فيقول بشر : وماذا يريد المأمون منى ويده تقطر بالسيئات . وقصره يعجُّ بالمرائين ، وينشد الحقَّ والرحمةَ الضعفاء والمساكين ، فلا تصل أصواتهم إلى مواطىء قدمه . إن كل مسلم يُسأل يوم القيامة عن نفسه، والمأمون مسئول عن الناس أجمعين .

إنى رجل فقير ضعيف لا أصلح للملوك فليطلب غيرى . وليتخذ له جليساً وسميراً سواى . فإنى لله عبد وهو يتخذ الناس عبيداً .

* * *

يا ورثة الأنبياء . . يا كواكب الهدى ومصابيح الظلام :

لقد كانت عبادة بشر جهاداً وعملا ، وأمراً بمعروف ، ونهياً عن منكر . لم تشغله الدنيا عن طاعة الله . لقد فرّ من الدنيا وفرّ من المأمون . وعاش فى طاعة وعبادة وزهد . فهكذا يعيش العلماء ورثة الأنبياء .

دُعاء وضراعة وابتهال

إلهى :

لا براء لى من ذنب فأعتــذر . ولا قوة لى إذ بها أنتصر . وإنما أنا عبد فقير ذليل . ضارعٌ مبتهلٌ مذنب مستغفر .

يا رب المخلوقات :

يا من نعترف بألوهيتك . حبًا ورجاء وطاعةً وخضوعاً وتعظيمًا وإنابة .

يامن لك وحدك كمال الحياة . وكمال الانفراد بأمور العبـاد . فعلاً وقدرة وضراً وَنفعاً ومشيئة .

يامن جميع أفعالك خير وعدل ورحمة .

إليك يا رب أضرع بذلّ العبودية . وإليك يا رب أتوسل بعز الربوبية، وبسر القرآن الـكريم .

رب هيىء لى كل سبيل يهدينى إليك . ويسر لى كل عمل يفتح أمامى كل باب أفد منه عليك . حتى لا أذِلّ ولا أفتقر إلا إليك .

رب هبنى من الخير ماعلمت منه ومالم أعلم . وأعوذ بك من الشر ماعلمت منه ومالم أعلم .

رب أسألك الجنة وكل ما يُقَرِّبنى إليها من قول أو عمل . وأعوذ بك من النـار وكل ما يُقَرِّبنى إليهـا من قول أو عمل .

* * *

يا رب المخلوقات :

يامن نعترف بألوهيتك . حبًا ورجاء وطاعة وخضوعاً وتعظيما وإنابة .

يامن لك وحدك كمال الحياة . وكمال الانفراد بأمور العباد . فعلا وقدرة وضراً ونفعاً ومشيئة .

يامن جميع أفعالك : خير وعدل ورحمة .

إليك يا رب أضرع بذل العبودية . وإليك يا رب أتوسل بعز الربوبية وبسر القرآن الكريم .

رب : أسألك موجبات رحمتك . وعزائم مغفرتك . وأسألك السلامة من كل إثم . والغنيمة من كل بر .

رب : أسألك ألا تطردنى من وقفتى أمام باب الذل إليك . وألا تصرفنى من وقفتى أمام باب الفقر إليك .

* * *

يا رب المخلوقات :

يامن نعترف بألوهيتك . حباً ورجاء وطاعة وخضوعاً وتعظيما وإنابة .

يا من لك وحدك كمال الحياة . وكمال الانفراد بأمور العباد . فعلاً وقدرة وضراً ونفعاً ومشيئة .

يا من جميع أفعالك : خير وعدل ورحمة .

إليك يا رب أضرع بذل العبودية . وإليك يا رب أتوسل بعز الربوبية ، وبسر القرآن الكريم .

رب : أسألك خير ما آتى وخير ما أفعل ، وخير مابطن وخير ماظهر .

رب : أسألك أن ترفع ذكرى ، وأن تضع وزرى ، وأن تصلح أمرى ، وأن تبارك لى فى أولادى ، وفى نفسى وفى سمعى وفى بصرى وسائر بدنى .

رب : أسألك أن تكفينى وأولادى المرض وذله وشره وسوءه . وأن تبارك لنا فى الحياة وفى الممات .

* * *

يا رب المخلوقات :

يامن نعترف بألوهيتك . حباً ورجاء وطاعة وخضوعاً وتعظيما وإنابة .

يامن لك وحدك كمال الحياة . وكمال الانفراد بأمور العباد . فعلاً وقدرة وضراً ونفعاً ومشيئة .

يامن جميع أفعالك : خيرٌ وعدل ورحمة .

إليك يا رب أضرع بذل العبودية . وإليك يا رب أتوسل بعز الربوبية ، وبسر القرآن الكريم .

رب : أعِنّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك .

رب : آت نفسي تقواها . وزكّها فأنت خير من زكاها .

رب : أعنّي ولا تُعِن عليّ . رب : انصرني ولا تنصر عليّ .

رب: امكر لي ولا تمكر عليّ . رب : علمني ما ينفعني . وانفعني بما علمتني .

رب : لا تحرمني من كل خير خزائنه بيدك . وامنع عني كل شر خزائنه بيدك .

رب : إني أعوذ بك من قلب لا يخشع . ومن نفس لا تشبع . ومن علم لا ينفع . ومن دعوة لا يستجاب لها .

رب : إني أعوذ بك من العجز والكسل. وأعوذ بك من الجبن والبخل. وأعوذ بك من الهرم . وأعوذ بك من زوال نعمتك . وأعوذ بك من تحول عافيتك . وأعوذ بك من فجاءة نقمتك . وأعوذ بك من جميع سخطك . وأعوذ بك من عذاب القبر ومن عذاب النار .

* * *

يا رب المخلوقات :

يامن نعترف بألوهيتك . حباً ورجاء وطاعة وخضوعاً وتعظيما وإنابة .

يامن لك وحدك كمال الحياة . وكمال الانفراد بأمور العباد . فعلاً وقدرة وضراً ونفعاً ومشيئة . يامن جميع أفعالك : خير وعدل ورحمة .

إليك يا رب أضرع بذل العبودية . وإليك يا رب أتوسل بعز الربوبية . وبسر القرآن الكريم .

أسألك يا فارج الهم . ويا كاشف الغم . ويا مجيب دعوة المضطرين . ويا رحمٰن الدنيا والآخرة . أن ترحمنى رحمة من عندك أكون بها فى غنى عمن سواك . وألا تكلنى إلى نفسى ولا إلى أحد من خلقك طرفة عين .

رب : احفظنى واحفظ والدىّ ، وأولادى وأصدقائى بالإسلام فى كافة أمورنا .

رب : لا تجعل الدنيا أكبر همى ولا مبلغ علمى .

رب :لا تسلط علىّ من لا يرحمنى ، واجعل ثأرى على من ظلمنى، وانصرنى على من عادانى .

رب : اهدنى لأحسن الأخلاق ، لا يهدى لأحسنها إلا أنت . واصرف عنى سيئها ، لا يصرف عنى سيئها إلا أنت .

رب : ارزقنى من طاعتك ما تحول به بينى وبين معصيتك . وارزقنى من اليقين ما تهوّن به علىّ مصائب الدنيا .

رب : اغفر لى ما قدمت وما أخرت . وما أسررت وما أعلنت ،وما أسرفت ، وما أنت أعلم به منى .

* * *

يا رب المخلوقات :

يا من نعترف بألوهيتك . حبًّا ورجاء وطاعة وخضوعاً وتعظيما وإنابة .

يامن لك وحدك كمال الحياة . وكمال الانفراد بأمور العباد . فعلاً وقدرة وضراً ونفعاً ومشيئة .

يا من جميع أفعالك : خير وعدل ورحمة .

إليك يا رب أضرع بذل العبودية . وإليك يا رب أتوصل بعز الربوبية وبسر القرآن الكريم .

يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك .

يا مصرّف القلوب صرّف قلبي إلى طاعتك .

رب : اجعلني لك شكّارًا ، لك ذكّاراً ، لك رهاباً ، لك مخبتاً ، إليك أوّاهاً منيباً .

رب : تقبل توبتي ، واغسل حوبتي ، وأجب دعوتي ، وثبت حجتي ، واهد قلبي ، وسدد لساني ، واسلل سخيمة قلبي .

وصلّ اللهم على سيدنا محمد رسول الرحمة ، وسيد الأنبياء والمرسلين، وإمام المتقين ، عبدك الذي ذكرته بالعبودية . في أشرف الأحوال وفي أعلى المقامات ، ومن أعطيته الوسيلة والشفاعة والدرجة الرفيعة والمقام المحمود ، الذي يغبطه به الأولون والآخرون ، نصلي على سيدنا محمد عدد ما أحاط به علمك، وجرى به قلمك ، وعدد ما خلقت وأنت خالق ، وعدد ما شئت من شيء بعد .

ونصلي ونسلم على آله وأصحابه والتابعين .

صححه وراجعه

محمود غانم غيث

الفهرس

صفحة

٣ مقـــدمة

٧ الإيمان ومطالبه

١٠ روحانيات للعارف الإمام ابن القيم

١٢ القرآن يدعو إلى الوحدانية

١٥ روحانيات للعارف الإمام ابن القيم

١٦ اعصم النفس ولا تخالف سبيل المؤمنين

٢١ روحانيات للعارف الإمام ابن القيم

٢٣ اربط على قلبك

٢٥ روحانيات للعارف الإمام ابن القيم

٢٦ إن رمت النجاة فاحفظ أربعاً

٢٨ روحانيات للعارف الإمام ابن القيم

٢٩ سلاحك دعاؤك

٣٢ روحانيات للعارف الإمام ابن القيم

٣٣ سبحان ربك رب العزة عما يصفون

٣٥ روحانيات للعارف الإمام ابن القيم

٣٦ تقلب فى منازل المحبـــة

٣٧ روحانيات للعارف الإمام ابن القيم

٣٨ المتصوف الصـــادق

٣٩ روحانيات للعارف الإمام ابن القيم

٤١ الإنسان خلاصة المخلوقات

صفحة

٤٤ روحانيات للعارف الإمام ابن القيم
٤٥ يامن تحسن الظن بربك
٤٧ روحانيات للعارف الإمام ابن القيم
٤٩ تعس عبد الدينار
٥٢ روحانيات للعارف الإمام ابن القيم
٥٤ أعوذ بك منك
٥٦ روحانيات للعارف الإمام ابن القيم
٥٧ آفة العبد من نفسه
٥٩ روحانيات للعارف الإمام ابن القيم
٦٠ ومن تصرف بحولى وقوتى أنت له الحمد
٦٢ روحانيات للعارف الإمام ابن القيم
٦٤ إياك والمعاصى
٦٧ روحانيات للعارف الإمام ابن القيم
٦٨ خذ الحكمة من الأضداد
٧٠ روحانيات للعارف الإمام ابن القيم
٧٢ كل شيء حلو ، كل شيء جميل
٧٣ روحانيات للعارف الإمام ابن القيم
٧٤ إنكار المنكر تحتمه الشريعة
٧٦ روحانيات للعارف الإمام ابن القيم
٧٨ العابد المتحقق
٧٩ روحانيات للعارف الإمام ابن القيم
٨٠ تأدب بأدب العبودية ، لا تشرك بالله

صفحة

١٠٩ القسم الثانى . رجال هم سادة الدنيا
١١١ رجـــال
١١٢ أبو بكر الصديق رضى الله عنه
١١٤ موقف الغـــار
١١٥ الصدِّيق يقدم للإسلام آخر ما يملك
١١٦ روعة الإيمان عند فجيعة المسلمين فى أفضل الأنبياء
١١٧ الصدِّيق يأبى تبعات الإيمان ومسئوليات الدين
١١٩ الصدِّيق يحدد مسئولية الحاكم بأمانة وصدق
١٢٠ الصدِّيق لم تصمد أمام بطولته عقبة ولا مستحيل
١٢٢ الصدِّيق يترك نعيم الحكم ولم ينعم بثرائه
١٢٤ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه
١٢٦ موقف أمير المؤمنين من نفسه
١٣٢ أمير المؤمنين رضى الله عنه يقول : إن نفسى قد أعجبتنى
١٣٤ موقف أمير المؤمنين من الولاة والحكام
١٣٨ موقف أمير المؤمنين رضى الله عنه من أهله ومن أفراد الرعية وأموالهم
١٤٢ بطل الانقلاب الروحى الفريد الخليفة عمر بن عبد العزيز
١٤٧ مواقف صادقة من العلماء
١٥٣ دعاء وضراعة وابتهال
١٥٨ الفهرس

رقم الايداع بدار الكتب ٣٧٦٦ لسنة ١٩٧٤